سلوى بكر

أرانب

رواية وقصص قصيرة

مكتبة مدبولى

أرانـــــب

١

فتح أسامة عينيه الخضراوين الضيقتين لتصطدما بالمشهد المزمن لصباحه اليومى: الدولاب الخشبى القديم ذى الباب المكسور الموارب، والكاشف عن ملابس زوجته القليلة بما فيها ثوب زفافها الأبيض المتشح بغبار سنين مضت، ثم المشجب النحاسى المثبَّت على الحائط بجوار الدولاب وقد استقرت على علاقاته البارزة المشكّلة على هيئة أسودٍ غاضبة بعض المناشف والألبسة، إضافة إلى سروال كالح سنجابى اللون، سيضطر إلى ارتدائه عند توجهه إلى عمله بعد حين؛ لأنه نسى كىّ بقية سراويله التى غسلتها امرأته فى اليوم الفائت، وبينما هو يتثاءب ويتمطّى بتكاسلِ مَنْ لم ينفض عنه غبار النوم بعد، جاءه صوت زوجته وهى تناديه بسعادةِ مَنْ أخذته المفاجأة المفرحة وتقول:

- أسامة، تعال، بصّ، كلّهم ولدوا.

نهض بحركة لا شعورية وجلس فى السرير للحظات متأملاً صورته المنعكسة على مرآة باب الدولاب المواجه له، ليكتشف أن لا جديد تحت الشمس؛ فصورته المعتادة هى هى: وجه شاحب ممصوص بفكٍّ علوى بارز قليلاً وأنف وفير متكوِّر تكوُّراً يجعله لا

ينسى أبداً قول الشاعر: «هذا جناه أبى علىَّ»، ثم شعر مخملى غزير، طالما اعتقد أن الطبيعة جائرة إذ تجمعه بكل ما فيه من جمال مع هذا الأنف الشرير فى وجه واحد. نطّ من مطرحه بهمَّة وحماس، وبخطوتين لا غير صار واقفاً إلى جوار حياة فى الشرفة الصغيرة للغرفة ينظر إلى صغار الأرانب، ذات الأعين المغمضة، واللحم الأحمر الطرى، وراح يتنهد برضا بعد أن أحاط بذراعه كتف زوجته العارى البارز من قميص نومها القطنى الخفيف، المحلّى بزهرات برسيم رقيقة كُركُميّة اللون وقال:

- بسم الله ما شاء الله. اسم النبى أحسن.

ردّت زوجته حياة بامتنان قائلة:

- عينى عليهم باردة، تسعة فوق، وستة تحت فى القفص، والله ربنا أكرمنا بهم يا أسامة، ووسَّع علينا؛ لأنه عالِم بحالنا وظروفنا.

لم يردّ وظل ساهماً يفكّر وهو يحدّق فى الأرانب الوليدة، التى راحت أمهاتها تبادله التحديق بعيون حمراء متوجّسة، ربما خوفاً على نتاجها منه. تفحَّص القفص الخشبى الكبير ذا الواجهة السّلكية المكون من دورين، ثم رفع رأسه محاولاً تقدير ارتفاع سقف الشرفة، ليعلن بعدها لزوجته:

- صاروا محتاجين إلى مكان أوسع من القفص، مشكلة والله.

نظر إليها نظرةً لا تخلو من معنى، فقد كان يرغب فى مفاتحتها بضرورة صنع قفص كبير فى شرفة البنتين، بدلاً من هذا الذى ضاق بهم؛ لأنها الشرفة الأوسع فى البيت، لكنه آثر السكوت؛ فقد خشى الردّ الرافض الذى تلقّاه قبلاً، كما آثر تجنب المشاكل والمشاحنات مع البنتين، خصوصاً الصغرى الناقمة على الحياة عموماً وعليه

خصوصاً؛ لتربيته الأرانب داخل الشقّة، والتى طالما نعتته بالتخلف وقلة العقل. لكنه على رغم رأيها هذا وعلى رغم سلاطة لسانها وأسلوبها العنيف الحادّ فى الحوار معه ومع أمها، فقد كان يلتمس لها العذر؛ لأنها عصبيّة، صبيّة، تعانى من حساسيّة مزمنة فى الصدر؛ تجعلها تلازم الفراش لفترات طويلة بين وقت وآخر. وعلى رغم طبيعتها المحبّة للحياة، إضافة إلى أنها تحلم، مثل كل الذين هم فى مقتبل عمرهم، بالحياة المريحة المرفّهة التى لا يقدر على توفيرها لها؛ مما يشعره دائماً بالمرارة والحزن وقلة الحيلة فى مواجهة الحياة. فكم من مرّة عبّرت له، وبطرق مختلفة عن رغبتها فى مجاراة أندادها فى الجامعة؛ بحيث تلبس مثلما يلبسون من ملابس أنيقة وتنفق بيسر. لكنها لا تحصل منه إلا على مصروف متواضع لا يتيح لها التصرف إلا فى أضيق الحدود، وبما يسمح لها بالحفاظ على مظهر عادى، بل أقلّ من عادى فى أحيان كثيرة تدفعها إلى الامتناع عن الذهاب إلى الجامعة، مثلما حدث يوم نسيت إحضار حذائها من عند مصلح الأحذية، وقد تذكرت ذلك وقت العشاء، فذهبت بحذاء أختها لإحضاره، لكن الدكان كان قد أغلق، وتصادف أن اليوم التالى كان يوم الاثنين، عطلة الجزمجى، فاضطرت إلى البقاء خلال ذلك اليوم فى البيت؛ لأنه لا يوجد لديها حذاء آخر. وهو يلتمس العذر لها أيضاً؛ لأنها لا تدرك حقاً مدى صعوبة الحياة فى هذه الأيام السوداء التى لا يعلم متى تنتهى وتغور إلا الله؛ ولأنها لا تدرك أيضاً كم يكلفه مصروفها المتواضع هذا من جهد وعرق، ولا تعرف أن هذه الأرانب «النيلة» - كما تصفها دائماً - هى السرّ الباتع الذى هداه الله إليه، ليواجه به متطلبات الزمن الصعب، والغلاء المتعاظم؛ وليجعل أسرته

تعيش فى مستوى يحول بينها وبين مدّ اليد بالسؤال.

تنهد برضا مفضلاً ألا يبدأ يومه بالتفكير فى منغصات ونكد لا لزوم لها، خصوصاً بعد أن استقبله بصباح ندىّ ولدت فيه الأرانب.

ضغط براحته كتف زوجته شحيح اللحم، ثم طلب منها فى امتنان وضع بعض من النقود فى صندوق نذور الجامع القريب؛ حمداً لله وتيمّناً بالخَلَف المبارك لأرانبه العزيزة. لكنها اعترضت على فكرته؛ لأنها قرأت أكثر من مرة فى صفحة الحوادث بالجريدة عن سرقة واختلاس فلوس صناديق نذور الجامع، ثم إنها ارتأت الاكتفاء بقراءة الفاتحة للأولياء، ومنح أم حسن أرملة بواب العمارة المتوفى مؤخراً ذكر أرنب كبيراً لتبرّ به عيالها الغلابة؛ فهى أولى بالهبة وبفعل الخير من صندوق النذور الذى لا تضمن صرف فلوسه فى المفيد للناس. ولما أنهت كلامها قائلة له: "ثم إن أم حسن تحت رجلنا وطالعة نازلة تقضى الطلبات وجارية على لقمتها ولقمة عيالها، والوليّة مقدّرة المعروف المعمول معها". تنهّد وطلب منها إعداد طعام الإفطار، وأخبرها بنيّته فى الحصول على إجازة مَرَضيّة من الشغل لمدة أسبوع يتفرغ خلاله للاهتمام بالأرانب وتوضيب قفصها، واحتفظ لنفسه برغبته فى الحصول على إجازة سنوية بدون مرتب؛ ليجند نفسه بالكامل لتربية الأرانب ورعايتها.

وهو فى طريقه إلى عمله داخل سيارة النقل العام، بدت له الحياة ذات مذاق مختلف فى ذلك اليوم. فالجو لطيف مقبول، على رغم حرارة شهر أغسطس المرتفعة، ورطوبته المعهودة التى تصيب الأبدان باللزوجة وبالتعرق السخيف الذى لا تُطاق رائحته المختلطة بروائح بصل الإفطار الفائحة من زفير الركاب. حتى النيل بدا فى

عينيه أكثر بهاءً وعظمة عندما مرّت السيارة بجانبه فى ذلك الوقت، ولا يشبه النيل الحزين المنكسر الذى اعتاد أن يراه كل يوم قبل ذلك. كاد أن يصفر بلحن أغنية الدنيا ربيع والجو بديع، لكنه آثر الوقار احتراماً لشعيرات بيضاء لا يمكن تجاهلها تناثرت بوضوح فى شعر رأسه. كان أسامة يشعر خلال تلك اللحظات بما بات يؤكده لنفسه بين الحين والحين فى الشهور الأخيرة، من أن الحياة بدأت تقبل عليه، وتفتح ذراعيها له، بل تعطيه ضوء الأمان الأخضر؛ لأن جيبه صار لا يفرغ من الفلوس أبداً، كما أن المتطلبات الأساسية لبيته وعياله تجرى تلبيتها فى سهولة ويسر دون الصعوبات المعتادة التى كان يواجهها قبل قيامه بمشروع الأرانب. غمره شعور عارم بالرضا والسكينة، وبأن الله أكرمه فعوّض شقاه خيراً بعد أن كدّ وتعب وتقلّب فى أعمال عديدة مارسها فى النصف الثانى من أيامه بعد الانتهاء من عمله الصباحى بوزارة الصحة، وقَبِلَ القيام ببعضها على مضض، وبشعور لا يخلو من المرارة والضيق، فقد اضطر ذات مرة إلى العمل كبلاسير فى سينما درجة ثالثة بإحدى المناطق الشعبية تعرض ثلاثة أفلام دفعة واحدة فى كل حفلة من حفلاتها، وكان يتقاضى شهرياً خمسين جنيهاً لا غير؛ مقابل إرشاد رواد هذه السينما إلى مقاعدهم المخصصة بصالة العرض. كان عليه خلال ذلك التعامل مع السمكرية والميكانيكية، وصبية المحلات، إضافة إلى البلطجية والشّضلية وجميع الأصناف الواقعة من قعر قفّة المجتمع، والتى رأى كل لون وصنف من أنواعها، خصوصاً فى حفلات منتصف الليل التى كان يختتم بها عمله الممتد من حفلة الثالثة ظهراً؛ وعلى رغم كل تلك الساعات الطويلة التى كانت تمر عليه

وكأنها دهر من الزمان، والتى يعود بعدها إلى بيته شاعراً بجسده وكأنه جوال ثقيل من الملح، وأنه لا يبغى من الحياة وحياة سوى الإلقاء بنفسه على الفراش والنوم حتى صباح اليوم التالى، على الرغم من كل ذلك الإجهاد والتعب كان يبيت ليلته راضياً مطمئناً، بل يعتبر نفسه من المحظوظين؛ لأنه وُفِّق فى الحصول على عمل إضافى يُدِرّ عليه مبلغاً يساعد فى زيادة دخله المحدود؛ لأن الخمسين جنيهاً بالإضافة إلى بضعة جنيهات أخرى تتجمع لديه بين الحين والحين كإكرامية من بعض رواد السينما كانت بمثابة النواة التى تسند الزير بالنسبة إليه؛ إذ ساهمت فى تقليل عدد وجبات البصارة والعدس بنوعيّه: الأصفر وأبو جبّة، التى كانت معدلاتها تتزايد اطرادياً مع اقتراب الشهر من نهايته. كما أنها لعبت دوراً حاسماً فى تسديد القسط الشهرى لسخّان المياه الذى كان لابد من شرائه رضوخاً لرغبة البنتين. لقد تحمل أسامة عمله هذا على مضض، وتعرف من خلاله على عالم لم يتصور يوماً وجوده فى هذه الدنيا. كان يشعر بداخله بنوع من المهانة والألم؛ إذ اضطرته الظروف إلى مخالطة حثالة بشرية فاقت كل ما شاهده من أمثالها على شاشة السينما المصرية؛ إذ كان مع بداية عرض كل فيلم، يرى فيلماً آخر على الطبيعة، موضوعه اللواط والمخدرات، والتعليقات البذيئة الصارخة، ولقد اكتشف ذات ليلة أن دورة المياه القذرة، التى كانت رائحتها المنتشرة فى جميع أنحاء صالة العرض، تزكم أنفه وتساهم فى تزايد شعوره بالمهانة، هى مسرح آخر للرذيلة؛ إذ كانت تجرى فيها عمليات داعرة سريعة بطلاتها بنات ليل من الدرجة العاشرة، وأبطالها من هواة النوع. ذات يوم، اضطر أسامة إلى ترك

هذه الوظيفة، بعد أن تجسدت له المأساة التى يحياها؛ إذ ضبطه زميل قديم له فى الوزارة، متلبساً بذلك العمل الدونى أثناء الليل. صحيح أن زميله هذا كان يصطحب معه خلال الحفلة الأخيرة فى ذلك اليوم فتاةً شابة صغيرة، خمّن أسامة من طريقة ملبسها المثيرة، وزينتها الصارخة وسلوكها الفج أنها واحدة من بنات الليل، لكن ذلك لم يمنع شعوراً بالخزى والمرارة اجتاحه وغمره؛ فلقد أدرك كم استخفَّت الدنيا به، وهانت حاله؛ فتصبب عرقه، وصار كمن صُبّ عليه سطل من الماء البارد، وارتبك، ثم راح يتلعثم وهو يتكلم مع الرجل محاولاً تبرير عمله، فقال مرة إنه يفضل تمضية الوقت فى عمل مفيد، بدلاً من الجلوس فى المقهى ولوك سيرة كل من هب ودب، وقال أخرى إن صاحب السينما صاحبه وهو يعاونه من باب المودة وتمضية الوقت ليس إلا، ثم أقسم يميناً ثلاثياً أن يشرب زميله وصديقته الكازوزة على حسابه، وتسلل خلال عرض الفيلم الثانى فى الظلام، وقدم لهما كيساً من اللب الأسمر وكيساً من الفول السودانى المقشر؛ من باب الزيادة فى الكرم ليتسليا ويستمتعا أكثر. على رغم يقينه أنهما فى غنى عن متعته هذه، فقد شاهد زميله أكثر من مرة وهو يضم المرأة إليه ويتحسس صدرها. لكن كل محاولاته لم تمكّنه من استعادة توازنه النفسى وشعوره بأن كرامته لم تهدر ولم تُمسّ؛ فقد ظل يحس بأن ريقه ناشف كحطبة، وبأن شيئاً كالحجر يقف فى زوره ويجعله لا يستطيع بلع ريقه، وقد اضطر أن يدخل دورة المياه ليغسل عينيه المغرورقتين بالدموع، فهو على رغم كل شىء - موظف حكومة محترم، وقبل كل شىء ابن ناس حميدى السمعة، وينتمى إلى عائلة أصيلة طيبة؛ فأبوه هو رستم

الليثى الذى كان والده ناظر زراعة الأمير طلعت باشا أحد أقرباء الملك فؤاد.

طافت بذهنه ذكريات مشروعه السابق لمشروع الأرانب، وهو مشروع تربية الحيوانات المنزلية الأليفة وطيور الزينة وأسماكها، الذى فشل فشلاً منقطع النظير، وكان مقره آنذاك شرفة الحجرة الداخلية التى تحتلها البنتان الآن. لقد اكتشف بعد فترة قصيرة من بداية المشروع عدداً من الثغرات الخطيرة فيه لا يمكن تجاوزها؛ فمثلاً كانت عصافير الكنارى الملونة الرقيقة، تظل فى حالة قلق بالغ، وتوتر عصبى دائم؛ بسبب حبسها داخل قفص ضيّق لا تكف عن التطلع إليها فيه، والتلمظ عليها، القطتان الفارسيتان الرماديتان، وذكر القط السيامى الوحيد، الذين كانوا خميرة المشروع. أما المعارك بين ثلاثى القطط من جانب، وفريق كلاب الجريفون واللولو الصغير من جانب آخر، فقد ظلت مستمرة لا تنقطع، وخصوصاً أثناء الليل، بعد أن اتخذ فريقا ذوات الأربع المتناحران من جميع أنحاء الشقة ساحةً للقتال، وقد أدت تلك الحرب التى لا تهدأ أبداً إلى حدوث خسائر لا يستهان بها فى البيت، فبين فو.. فو، وخ.. خ، وهو.. هو، تكسّرت أوانٍ وأطباق من الزجاج والصينى، وفقدت حياة إلى الأبد أعزَّ ما تملكه منها، وهو طبق الفاكهة المصنوع من الكريستال الوردى الذى كانت أمها قد ضمته إلى جهازها وقت زواجها بعد أن اشترته من بائع ساكسونيا جوّال مقابل خمسين قرشاً، بالإضافة إلى سترة رجالية قديمة من الصوف الكشمير كانت لأبيها. وقد تسببت تلك الحرب الحيوانية فى تعرض أسامة لأشكال من اللَّوْم والتوبيخ المهذب من قبل الجيران كانت تجىء على صورة مذكرات احتجاج شفاهية

ينقلها أبناؤهم المبعوثون بصفة رسمية إلى البيت، وتأتى جميعها بصيغة واحدة تقول: «وحياتك يا عمى خلّ القطط تسكت والكلاب تبطل هوهوة؛ حتى نقدر ننام ونستريح» إضافة إلى ذلك، فقد اضطرت حياة الملاحقة مخلّفات الكلاب الموزعة على نحو عادل فى كل ركن من أركان الغرف، فى محاولة دءوبة لمنع كارثة بيئية يمكن أن تحدث فى البيت، وإلى جانب ذلك كانت تضطر إلى القيام برحلة يومية إلى السوق؛ لشراء نباشات الفراخ للقطط، وبقايا العظام من الجزارين للكلاب، لتعدّ لهم منها بعد سلقها وجباتهم اليومية اللذيذة، أما العصافير، فكان عليها أن تقدم لهم البُرغل وأن تعتنى بقفصهم وتنظيفه. فلما فاض الكيل بها، ونفد صبرها طويل الحبال الذى لا ينفد عادة ببساطة، أعلنت حالة العصيان العام، فامتنعت ليومين على التوالى عن الذهاب إلى السوق؛ لشراء الطعام للقطط والكلاب؛ بحجة أن رجليها متعبتان وأنها لا تقوى على المشى؛ مما أدى إلى أن تأكل القطط والكلاب بقايا الخبز والطبيخ، بل دفع الجوع واحدة من القطتين الفارسيتين إلى التهام قطع من الخيار المخلل على مضض، وهذا ما لم يقبله القط السيامى الذى رفض رفضاً قاطعاً النزول إلى الحضيض، وفضّل الموت جوعاً على العيش فى ذلة ومهانة؛ فرفض أكل العيش، واكتفى طوال هذين اليومين بصرصارَيْن اصطادهما ليلاً فى غفلة من الجميع. ثم إن حياة صعّدت من تمردها، فامتنعت عن طهى الأرز بالشعرية لأسامة الذى لا يمكنه أن يأكل أىّ طبيخ بدون أرز، وأىّ أرز بدون شعرية، ثم افتعلت خناقات صغيرة مع البنتين بخصوص عدم ترتيب حجرتهما، وترك الصابونة النابلسية تذوب فى الماء بعد استحمامهما. فلما لم ينتبه أحد إلى ما وراء ذلك كله أعلنت

صراحة أثناء تناولهم الغداء أن الكيل فاض بها، وبلغ السيل الزُّبى، وردت على زوجها المستنكف عن بلع اللقمة بدون أرز، بأنها ستترك البيت فوراً؛ إذا لم تُجْرَ عملية إخلاء سريعة للحيوانات خلال أربع وعشرين ساعة، ثم إنها شرعت، تلمّ هدومها قبل الانتهاء من الأكل، وراحت تكدّسها فى حقيبةٍ صاج كانت مرمية تحت السرير منذ سنوات بعيدة، بدت كواحدة من حقائب كنوز قاع البحار التى يعثر عليها صدفة، فى الأفلام الأمريكية القديمة.

لما تأكد أسامة من أن حياة راكبة دماغها، وسادرة فى غيِّها، تراجع وأقسم يميناً بالثلاثة أن لا كلاب ولا قطط فى البيت بعد ذلك اليوم، ثم إنه بعد أن شرب شاى ما بعد الغداء وقيّل لمدة ساعة، قام وارتدى ملابسه واصطحب الكلاب معه لترحيلها إلى محل متخصص فى بيع الحيوانات والطيور الأليفة منها وغير الأليفة، كالقرود والصقور وجميع أنواع الكلاب ما عدا البلدى والأرمنتى على وجه التحديد، ربما مشاركةً منه فى سياسة الانفتاح الاقتصادى، وعملاً على تنفيذ سياسات البنك الدولى المتعلقة بعدم تشجيع المنتج المحلى والصناعات المحلية، أما القط السيامى المتعالى الأنف فهو الوحيد الذى جرى الاحتفاظ به فى البيت تقديراً لنظافته وعزة نفسه، ولكونه ذكراً لا خوف عليه من العشار، بينما عاشت القطتان الفارسيتان محنة حقيقية بعد قرار أسامة الجرىء؛ إذ جرى بيعهما لسيدة من هواة تربية الحمام، تَمْقُتُ القطط بالوراثة، وتعتقد أن تلك الحيوانات هى المكمن المفضل للأرواح الشريرة؛ فكانت تحبسهما بجوار أقفاص الحمام السودانى والمالطى التى وضعتها على سطح منزلها، فيما يفترض أنه كمين لأى فأر عابر تُسوِّل له نفسه

الاقـتـراب من الحـمـام أو من الحـبـوب التى يُطعم بهـا. وقـد عـانت القـطتـان مـعـاناة فظيـعـة بسـبب الجـوع الشـديد والحـبس؛ لأن هذه السـيدة لم تكن تقدم لهـمـا طعـاماً يُذكر، مكتفـيّة بالماء؛ أمـلاً فى أن ينشطا طوال الوقت لصـيـد الفـئـران والهـوام إذا بقـيت مـعـدتاهمـا خـاويتين تصـرخـان من الجـوع. هكذا اسـتـتب الأمن فى البـيت مـرة أخرى، بعد أن ظلت حـياة فى قـواعدها سـالمة، وقررت إهـداء حوض أسـماك الـزينة - وهو آخـر ما تبـقى من المشـروع - إلى ابن عمّ لأسامة؛ بمناسـبـة زفافـه وتأثيـثـه منزل الـزوجيـة، وهـو القـريب الوحـيـد الذى احتفظوا بعلاقة اجـتماعيـة معـه؛ بسبب تقـارب مسـتواه المعيشى من مسـتواهم. وقد ضـربت حـياة بهـذا الإهـداء عصفورين بحـجـر واحد؛ فتخلصت من الأسماك التى تصيبها بتقزز لأنها تلتهم أبشع ما خلقه الله من وجـهـة نظرها وهـو الدود، كـمـا أنهـا سـدّت ركناً وأدّت واجـبـاً كان لابد منه مع ابن العم، بالإضـافـة إلى عدم تحـمـيل مـيـزانيـة البيت أيَّة أعباء جديدة لشراء هدية من السوق خصيصاً لهذه المناسبة.

كـان أسـامـة يداخله إيمان عـمـيق بأن مـسـتـقـبله سـيـزدهـر مع الأرانب، وأن تلك الكـائنات الهـادئة الوديعـة ذات الفراء الأملس الناعم، هى الحل لكل مشـكلات حيـاته، والنهاية السعيدة لمعاناته اليومية التى صـار يواجـهـها منفـرداً بعـد وفـاة أبيـه وزواجـه وإنجـابه فـهـو بدون أهل تقـريبـاً؛ بعد تقلص علاقـاته الاجـتماعـيـة وانكمـاشـها مع معظم أقارب أمّه وأبيه؛ لأنه مـوظف صـغيـر محـدود الدخل لا يمكنه مـجـاراة حيـاتهم الميسـورة كـتـجـار فى الـسـوق، ضـالعـين فى أهمّ نشـاط اقـتصـادى عـرفتـه البـلاد خـلال السنوات الأخيرة، وهـو المضـاربة فى العقـارات والأراضـى. ومنذ أن تزوج أسـامة وأنجب البنتين، ومـرتبـه يتـضـاءل دومـاً أمـام تمدُّد

الأسعار والمطالب الأسرية التى لا تنتهى. حتى إنه بات ينسى تماماً مسرات زمنه الأول الصغيرة، والتى كانت تتلخص فى الجلوس على المقهى كل مساء، ولعب الدومينو المفضل لديه على سائر ألعاب التسلية الأخرى. بالأحرى تخلى أسامة عن دفع نصف جنيه كان ينفقه على المشروبات بالمقهى يومياً، بعد أن حسب حسبته، ووجد أنه من الأفضل توفير خمسة عشر جنيهاً كل شهر لشراء كيلو عنب بناتى، أو كيلو بلح أمهات، أو رُطب لتبليع وجبة العشاء فى الصيف، أو ابتياع البرتقال "أبو سرَّة"، والموز الذى تحبه ابنته الصغرى فى فصل الشتاء.

ظل سارحاً بأفكاره وهو واقف فى السيارة، يرقب من شباكها أولئك المنتظرين عند كل محطة تقف فيها. كان يتأمل وجوههم المكدودة الشاحبة، ونظراتهم الميتة المنطفئة البادية من عيونهم بلا معنى. أحسَّ أنهم كائنات تحيا كما الموتى، كائنات تأتى إلى الحياة وتغادرها وكأنها لم تكن فيها أبداً، كان يدرك أنه يشبههم بشكل من الأشكال، إنسان بلا معنى، أتى إلى الحياة وسيتركها ذات يوم وكأنه لم يكن فيها أبداً؛ فهو إنسان بلا لون، بلا طعم، برائحة، مثل كل أولئك الذين يراهم واقفين على المحطات ينتظرون وكأنهم لا ينتظرون إلا الموت، فكل ما فعله فى هذه الحياة، هو أنه تزوج وأنجب ولا شىء أكثر من ذلك، لا شىء أكثر مما تفعله أية حشرة تافهة أو دودة صغيرة أو حيوان أعجم من مخلوقات الله الكثيرة. زفر بحرارة وهو يتحسر على حاله، فكم حلم أن يفعل شيئاً ذا معنى فى الحياة، وكم تمنى أن يكون متميزاً لافتاً للانتباه على نحو من الأنحاء، مثلما تشوق لأن يحبّ ويعشق بعنف؛ حتى يصبح نادرةً

يتندَّر بهـا الناس، لكنه على أية حـال، لم يتـجـرّأ أبداً على أن يكون قيْساً؛ فهو مدرك لعدم وسامته. وحلم أن يكون مطرباً مشهوراً يدخل كل بيت ليحطم قلوب العذارى، لكنه لم يجرِّب الغناء على الملأ أبداً؛ ربما بسبب النتائج السلبية الشديدة التى كان يحصل عليها دوماً كلما شرع فى ذلك أثناء تليف جسمه فى الحمام. لكن شعوراً عميقاً بسوء الحظ ظل يداخله حتى اليوم؛ لأنه كان ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من الشهرة، بل كاد يقف على أولى عتبات القيمة والمعنى، لولا أمه جازاها الله ورحمها؛ فقد كان مولعاً أثناء دراسته الثانوية بتقليد أصوات الحيوانات، بل ربما كانت محاكاة أصوات القطط والكلاب والحمير والخراف والبط والإوز وحتى الأرانب، هى الهواية الوحيدة التى عرفها على مدى تاريخه البشرى، وهى الهواية التى اكتشفها ذات يوم بالصدفة؛ إذ كانت لدى أمه قطّة فى البيت، راح ذات مرة يسلّى نفسه بتقليد مواء صغارها الذين وضعتهم منذ فترة، فلاحظ أن القطة قد بدأت تنتبه وترتبك وأخذت تموء بدورها بحثاً عن صغارها. وهكذا بدأت تستهويه اللعبة؛ فراح يموء بين الحين والحين، مقلِّداً صوت القطط، وبالطبع اكتشفت القطة الأمر بسرعة، لكن أمه لم تصدق نفسها عندما سمعته، مثلما تعجّب كل الذين سمعوه يموء بعد ذلك؛ إذ أنهم لم يستطيعوا التمييز بين صوته وبين صوت أى قط شرس يستعد لمعركة، أو قط جائع يتسول، أو قط يطلب العشار فى أنغام متنوعة من واعوا، واعوا، واعوا. ذات يوم اشترك أسامة الذى كان صيته فى مجال التقليد الصوتى للحيوانات قد ذاع وانتشر فى حفل مدرسى، وقدم فقرة فردية أدى خلالها العديد من أصوات المستأنس والوحشى؛ فحاز على إعجاب

شديد وتصفيق حاد من جمهور الحاضرين الذين ظنوا أن حماراً حقيقياً يقف أمامهم على المسرح وينهق، فالتقاه واحد من الحضور يعمل فى الإذاعة وقدَّمه لصاحب برنامج "جرّب حظك" الذى أفرد له بدوره حلقة كاملة لاقت نجاحاً جماهيرياً كبيراً؛ مما دعا الإذاعة إلى بثها عدداً من المرات بعد أن اكتشف مُعدٌّ البرنامج عبر الخطابات الكثيرة التى وصلته، مدى عشق الجمهور لأصوات الحيوانات. وقد دهش أحد الخبراء فى الإذاعة جداً لذلك؛ لأن الحمير تنتشر وتتوزع على جميع أنحاء الخريطة الوطنية، كما أن الإحصاءات تشير إلى أن نصيب كل مواطن داخل العاصمة هو أربع من الكلاب والقطط، ناهيك عن بقية الأنواع الأخرى. وقد عرضت إدارة البرنامج فى الإذاعة على أسامة وقتها أن تقيده بسجل الممثلين العاملين فيها ليساهم فى بعض التمثيليات الإذاعية المتطلبة دراما تتخللها أصوات بعض الحيوانات، لكن الغضب الشديد الذى قوبل به من أمه جعله يُحجم عن الاستمرار فى طريق الحيوانات هذا، وذلك بعد أن وشت به قريبة لأمه، استمعت إلى برنامج "جرّب حظك"؛ فأخبرتها أنه جرى ذكر اسم ابنها ثلاثياً فى البرنامج، وأن الجمهور ضحك كثيراً خصوصاً عندما قلّد صوت ذكر البط السودانى، والديك الرومى عندما ينفش ريشه ويُستثار، فقامت أمه بتوبيخه وزجره وقالت له إنه يرغب فى تمريغ اسم العائلة فى الوحل، ويريد أن يجعلها مسخرةً للناس بعد أن تحول إلى مهرج كمهرجى السيرك، بل إن مهرجى السيرك أفضل منه؛ لأنهم يُضحكون الأطفال ولا يقلدون أصوات الحمير والكلاب. وبعد ذلك عيَّرته بخيبته فى المدرسة وبلادته وذكَّرته بشهادته الشهرية التى

تكسف، وتغُمّ البال والخاطر، وبرسوبه المتكرر فى مادة الأحياء وبالكعكة الحمراء المحيطة بالدرجة التى حصل عليها (ستة من عشرين)، ثم بكت وتحسّرت على خيبة أملها فيه، وفى الحياة، ونادت على زوجها العزيز (أبيه) كى يخرج من تربته ويجىء ليراها ويرى ما فعلته الدنيا بها، وخيبتها التى ما لها وصف. وانتهى الأمر بأنها أخذت منه تعهداً شفاهياً وفى حضور القريبة التى ظلت تهدئها، وتنهره أيضاً، بألا يعود إلى فعلته هذه مرة أخرى، وإلا فإنه لن يكون ابنها ولن تعرفه، وربما وجدها ميتةً ذات يوم بسببه؛ من شدة الغيظ وفقع المرار، إذا اكتشفت عودته إلى إصدار هذه الأصوات. وبناءً على تعليمات القريبة، قام وقبّل رأس أمه واعتذر لها. لكنه على رغم كل هذه المرارات القديمة التى لا تفتأ تنبعث من داخله وتسمم روحه، وكل الإحباطات الحياتية المتتالية التى لاقاها، مازال يشعر بأن ثمت أملاً فى الحياة، أملاً فى أن يكون ويتحقق ويصبح كائناً ذا معنى، والأمل الآن يبرق مجدداً بداخله من خلال مشروع الأرانب الذى بات يعوِّل عليه كثيراً، ويرسم من خلاله حياةً طيبةً ميسورةً، ربما منحته فرصةً للاسترخاء والبحث عن المزيد؛ من أجل التحقق والوجود على نحو أفضل.

راح يتذكر الأرانب بعيونها المستديرة البارقة المحدِّقة، وكأنها فى حالة اكتشاف ودهشة أزليين تذكر حادث الولادة الجماعية الذى استقبل به يومه، واعترته حالة من التقدير والامتنان لتلك الكائنات الطيبة، المعطاءة بلا حدود، بل الرزينة المؤثرة للهدوء وعدم الإزعاج إذا ما قورنت بالدجاج والدِّيكة أو الإوز والبط. صحيح أن نظراتها تبدو بلا معنى، لكن شكلها فى نظره لا يخلو من ظرف وطرافة وهى

تلتهم البرسيم الأخضر الندىّ فى الصباح، أو عروش الجزر عند الظهيرة، كم يكون منظرها ممتعاً لعينيه عندما يختلط لون العشب الأخضر بألوانها البيضاء والسوداء والبُنية فى تشكيلات بصرية رائعة.

كان يحلم خلال تلك اللحظات بترتيب حياته على أساس مشروع ينمو ويكبر ويتخطى حدود الشرفة والبيت، ينطلق به إلى عالم رجال الأعمال المرموقين، مشروع للأرانب يتحقق معه مثلما لم يتحقق أبداً من قبل. نزل من الأتوبيس وسار متجهاً إلى الوزارة حاملاً بيده كيساً قماشياً فى داخله أرنبان كبيران. كان أسامة قد صمم ذلك الكيس بنفسه وحاكه من قماش مخلاة العسكر السميك؛ حتى لا يتسنى لأى إنسان التكهن بما فى داخله. وقد تفتق ذهنه عن فكرة تبطين الكيس بالبلاستيك المتين؛ ضماناً لعدم تسرُّب أية فضلات أو أوساخ محتملة من الأرانب يمكن أن تلوث ملابسه عند حمله فى الطريق.

فى حوالى الساعة العاشرة والنصف، دخل أسامة غرفة المدير العام ليوقِّع طلب تحويله إلى الطبيب المختص ليحصل منه على الإجازة المرضية، وهو الطلب ذاته الذى كان قد سبق له توقيعه من رئيسه المباشر. وعندما رفع المدير رأسه الصغير عن الأوراق التى كان يقرؤها أمامه، واكتشف أن الواقف أمامه هو أسامة رستم موظف المواليد بقسم الإحصاء بالوزارة، هتف متسائلاً وهو يشرع فى قراءة الطلب:

- خير يا أسامة، مالك؟. كل يومين إجازة، مرة عارضة، ومرة مرضية، شكلك فى منتهى الحلاوة والحمد لله.

رد أسامة بمسكنة وصوتٍ خفيض قائلاً:

- أبداً والله يا أستاذ فهمى، من يومين والكلى متقلبة علىّ، عاوز أعمل أشعة؛ لأنى شعرت الصبح بحسرة بول شديدة، وحرقان غريب.

واصل المدير كلامه وتساءل:

- ألف بعد الشر عنك يا أخى اشرب عصير قصب على الريق واغلِ حلف برّ. صحيح أنه مرّ جداً، لكنه ممتاز للكلى ويزيل التعب منها بسرعة. لكن لى سؤالاً والله يا أسامة بخصوص الأرانب؛ لأنى شفت عبد الحميد الساعى الصبح ومعه كيس قماش كاكى، فلما سألته، قال لى إن الكيس فيه أرانب تخصُّك.

فوجئ أسامة بكلام المدير، فرفع يده إلى مؤخرة رأسه وتحسس خصلة الشعر المقاربة لقفاه فى حركة لا إرادية يقوم بها عادة كلما شعر بأنه فى ورطة ما. أحكم نظراته فى عينى الرجل الجالس قبالته، محاولاً تقصّى ما لديه من معلومات تتعلق بمشروع الأرانب. وراح يُعمِل ذاكرته أثناء ذلك؛ خشية أن يكون قد سرّب عن غير قصد خبراً بخصوصهم فى الوزارة، لكنه تأكد أنه لم يبح لأى إنسان فى العمل بكلمة واحدة عن ذلك، حتى ولا زميله المقرب إليه فى قسم الإحصاء، شاعر العامية الرقيق الذى يجلس عادة إلى جواره، والمختص بحل الكلمات المتقاطعة... وحتى لو كان المدير قد تناهت إليه أية معلومات تخص الأرانب، فليكن ما يكون، وليذهب إلى الجحيم؛ لأنه سيتجاهل كلامه تماماً، ويستهبل حتى لا يفتح على نفسه باباً فيطلب المدير منه أرانب لا يسدد ثمنها، أو يضطر إلى مجاملته فيبيعها له بثمن أقل مما يبيعه للناس... ثم إنه إنسان لا يحب أن يعرف زملاؤه ورؤساؤه عنه أى شىء يتعلق بحياته الشخصية والعائلية خارج العمل؛ لذلك أسعفته قريحته المستعدة لمثل هذه

المواقف بكذبة سريعة استخرجتها من أرشيف أكاذيبه الكبير، المكتَسب عبر سنوات طويلة من العمل فى الحكومة، فكحّ وتنحنح قليلاً ثم قال:

- أبداً. لى قريب مريض فى مستشفى الحميّات، قلت لروحى أعوده، وأدخل عليه بأرنبين هدية لأن لحم الأرانب خفيف، ثم إنه أفضل من الحلويات بالنسبة إليه، والحقيقة أنى اشتريتهم من واحد معرفة، عنده بطارية أرانب فوق سطح بيت أمه، ودائماً أتعامل معه لأن الجماعة عندى فى البيت أفضل أنواع الظفر عندهم هو الأرانب، والرجل صاحبى أمين ومضمون جداً، وبضاعته ممتازة.

استمع المدير إلى مرؤوسه على مضض، وكأنه لم يقتنع بما قاله، ثم سأله عن سعر كيلو الأرانب، فأجابه قائلاً:

- بستة وربع، أرخص من السوق فى الحقيقة، ثم إنه مضمون من ناحية الأكل والنظافة؛ لأن الرجل، كل الوقت، يحط لهم البرسيم وعروش الجزر الأصفر... يعنى أرانب ممتازة والله. تشترى وأنت مغمض عينك.

أخيراً وصل الرجل إلى بيت القصيد فقال:

- عال.. عال والله لو قدرت، تخلينى أجربه يا أسامة، وتشترى لى منه اثنين أكون فى غاية الشكر، يعنى هات لى أرنبين كل واحد فى حدود كيلو وربع؛ لأنى أفضّل الأرانب الصغيرة. وبحركة مسرحيّة مدّ الرجل يده إلى جيبه كمن سيخرج نقوداً ليدفع، فبادره أسامة بقوله:

- خلّ الحساب يا أستاذ فهمى لما أجيب لك الأرنبين، كلها مسائل بسيطة، لكن أنا عاوز أعرّفك أن صاحبى بيبيع الأرانب على حالها،

يعنى صاحية، وكل إنسان يتصرف بمعرفته فيها. رسم الأستاذ فهمى هرمّين صغيرين بحاجبيه الكثيفين استنكاراً، فالمفروض أن يأتيه أسامة بالأرنبين مذبوحين ومسلوخين وبلا مصارين، كما درجت العادة، لكنه لم يتراجع عن طلبه وعزَّزه بطلب جديد من أسامة ألا وهو أن يميل فى طريقه على أى فرارجى، ليذبح الأرنبين ويسلخهما، ويأتيه بهما جاهزين للطبخ.

تنهد أسامة وزفر، فهو يفضل بيع الأرانب حية كلما أمكنه ذلك؛ حتى يقلل من تعب حياة فى عمليات السلخ والتنظيف التالية للذبح، لكنه أصبح مضطراً إلى ذبحهما له على أية حال، مثلما يفعل مع بعض الزبائن، فالرجل وقَّع طلب الإجازة المرضية مشكوراً دون تعنت، والطبيب سيوافق عليها أيضاً ولابُدّ، بعد أن يقدم له الأرنبين على سبيل الهدية. "أرنبان مقابل إجازة لمدة أسبوع أقضيه فى البيت متفرغاً لمشروع الأرانب، عظيم جداً" قال لنفسه وهو يتمنى حلّ مشكلة القفص خلال هذه الفترة وشراء علف من بقايا الدماء والأسماك المجففة يباع جاهزاً، عرف مؤخراً أنه مفيد جداً فى نمو الأرانب بسرعة وزيادة وزنها، كما أنه يتمنى عمل مزلاج متين لباب القفص بدلاً من المزلاج الحالى الذى يستسلم لهبّات الهواء أحياناً فينفتح بسهولة، ناهيك أنه يريد أن يريح جسده المنهك يومياً من رحلة الذهاب إلى الشغل والعودة منه، وركوب السيارة العامة المزدحمة بالركاب. رجع إلى البيت ظهراً، بعد أن تمّت مهمة الإجازة بنجاح، فقد شكره الطبيب على لمسة الأرانب الناعمة والتمس منه أخرى مثلها فى المرات القادمة لمساعده الذى يدوّن الإجازات فى السجل، لكنه ما إن فتح باب الشقة، ودخل

البيت حتى سمع زعيق ابنته الصغرى سامية وهى تصيح غاضبة:

- أرانب.. أرانب، عيشتنا أصبحت أرانب فى أرانب، كل يوم الأكل بالأرانب، عاوزة سمك، فراخ، أى نوع من أنواع اللحم غير الأرانب، يا عالم حرام عليكم، كأننا فى سجن أو معسكر جيش، والأرانب مقررة علينا وكأنها قدر.

ثم سمع صوت أمها وهى ترد عليها بغضب أشدّ وتقول:

- والله أصبحت غِلسة يا سامية، وسخيفة جداً، قاعدة تتبطرّى على النعمة وتقولى أحب وأكره، ناس ياما نفْسها فى نسيرة أرنب أو نسيرة ظفر، وأنتِ لا حمد ولا شكر، قولى يا شيخة الجود فى الموجود والحمد لله وإلا زالت النعمة من خلقتك، حرام أنه لا عاجبك العجب ولا الصيام فى رجب.

تلّث أسامة صراخهما من مكانه فى مدخل الشقة مطالباً إياهما بالسكوت؛ لأن زعيقهما وصل إلى مدخل العمارة. خلع حذاءه ودخل غرفة المعيشة حيث ألقى بجسده المتعب على أول كرسى قابله، ثم أعلن للمتخاصمين فى المطبخ أنه جائع، وطلب من حياة أن تسعفه بأية لقمة لأنه سيسقط من طوله من شدة الجوع. قام إلى التلفزيون فشغلّه وعاد إلى مقعده ليتابع نشرة أخبار الظهيرة التى كان يجرى بثها فى ذلك الوقت، اكتشف أنها لا تختلف كثيراً عن نشرة اليوم الفائت واليوم الذى قبله، بل نشرات الأخبار التى تُبثّ منذ شهر مضى. حكّ رأسه مللاً ثم فك أزرار قميصه، وظل يتابع أخبار النشرة فى الوقت الضائع حتى إعلان زوجته أن المائدة جاهزة لكى يأكل. لفت نظره أن مشهد قوات الطوارئ الدولية فى يوغوسلافيا المواكِب لكلام المذيعة، هو المشهد ذاته الذى رآه منذ يومين مصاحباً

لخبر آخر عن المأساة ذاتها، جنود الأمم المتحدة بقبعاتهم سماوية اللون يهرولون ويركبون العربات دون أن يفهم المرء معنى لذلك. كان يفكر فى الأرانب، وفى إجازته المرضية التى كرَّسها خصيصاً لرعايتها، كما فكر فى أرنبى المدير واكتشف أن كذبة صاحبه الذى عنده بطارية أرانب، كانت فكرة وجيهة يمكن أن يعممها داخل الوزارة، التى يمكن أن تصبح سوقاً ممتازة للأرانب، وسرعان ما حسب حسبةً بسيطة اكتشف بعدها أنه لو باع عشرين أرنباً كل شهر فى الوزارة، بمعدل وزن كيلو جرامين لكل أرنب، لَكَسِبَ ما يزيد عن ضعف مرتبه الشهرى الذى يتقاضاه مقابل عمله فى الوزارة بعد إحدى وعشرين سنة خدمة.

أفاق أسامة من أفكاره وحساباته على بداية ندوة اقتصادية أعقبت نشرة الأخبار، تتناول المشروعات الصغيرة وتنميتها فى الريف والحضر، كان ضيف الندوة المتحدث أستاذاً جامعياً وخبيراً اقتصادياً ووزيراً سابقاً، راح يتناول سياسات الأمم المتحدة فى تمويل هذا النوع من المشروعات البيئية اللازم لنمو بلدان العالم الثالث والذى يعتمد على أساليب إنتاجية محلية ولا يحتاج إلى تكنولوجيا متقدمة ورأس مال كبير. أغلق أسامة التلفزيون وسار إلى زوجته التى بدأت فى إضافة الثوم المقلى إلى الملوخية وقال لها:

- تعرفى يا حياة. طقّت فى دماغى فكرة، لو تحققت، نكون وصلنا فعلاً، فلو قدرنا واشترينا أية أرض صغيرة، نعمل فوقها مزرعة أرانب، نقدر بعدها أن نطلب أى قرض صغير على سبيل المساعدة من الأمم المتحدة.

حركت حياة المغرفة فى وعاء الملوخية لتقليبها، ثم تذوقت بها

بعضاً من الطبيخ، فلما اطمأنت إلى درجة ملوحته، نظرت إلى زوجها من تحت إلى فوق وقالت له باستخفاف:

- يعنى الأمم المتحدة فاضية لأمثالك يا أسامة، معقول تعطيك الفلوس لأجل بطارية الأرانب.

أخذ أسامة يشرح لها بحماس ما تابعه فى ندوة التلفزيون، وكيف أن الخبير المتحدث، أكد على ضرورة المشروعات الصغيرة. صحيح أنه لم يذكر الأرانب بالاسم، لكن لِمَ لا، أليس ما يقوم به فى الشرفة من تربية الأرانب يعتبر مشروعاً صغيراً أيضاً، قابلاً للتطوير بحيث يسمح بالحصول على قرض؟.

واصلت حياة تقليب ملوخيتها وهى تستمع بأذنين نصف مفتوحتين لما يقوله رجلها، كانت تشغلها فكرة واحدة هى أن أسامة عاد إلى عادته القديمة فى بناء مشاريع هوائية وهمية لا وجود لها إلا فى أحلام يقظته. كانت تعتقد أنه مريض مرضاً خفيفاً بجنون العظمة ربما كان مرجعه أصالة عائلته، والحياة الطيبة التى عاشها فى طفولته فى بيت جده ناظر الزراعة، والتى كان يحب أن يتذكر بعضاً من تفاصيلها بين حين وآخر، فيقص عليها كيف كان يأكل بملاعق من الفضة الخالصة، وكيف كانت قمصانه الداخلية من الحرير الهندى المفتخر، وكم ركب عربة جدّه ذات الأفراس الأربعة المُطهَّمة. وكانت حياة فى البداية تظن أنه يبالغ بعض الشىء عندما يسترسل فى مثل هذه الذكريات، وأنه يضيف من عنديّاته وقائع لا أساس لها قط، لكن الطريقة المؤثرة التى كان يتحدث بها عادة، وحماسه الشديد، جعلاها تقتنع فى النهاية بصدق ما كان يقصُّه عليها.

ظلت تستمع إليه بلا مبالاة، على رغم الجديّة واليقين الكبيرين اللذين تمتلئ بهما نبراته، ولم تنتبه إلى نظراته المتلمظة المتطلعة إلى ما يحيط بمعصمها الأيمن من ذهب. السواران اللذان كانت قد اشترتهما بعد أن دبّقت قليلاً من مصروف البيت، وأضافت ما ادخرته من هذا إلى فلوسها المتحصلة من نصيبها فى ميراث أبيها.

تابع أسامة شرح وجهة نظره لحياة فى محاولة جديدة لإقناعها فقال:

- لو تمكنا يا حبيبتى من شراء قيراطين بالعدد، حتى لو فى أرض صحراوية وبنينا مزرعة أرانب، تبقى خطوة عظيمة. لأن الأمم المتحدة - حسب كلام التلفزيون - تقبل فى هذه الحالة أن تعطينا التمويل. لكن فى وضعنا الحالى صعب أن نتكلم ونقول: والنبى يا أمم يا متحدة موّلى لنا مشروع أرانب فى البيت. تبسَّمت حياة دون أن تدرك ما يرمى إليه وعارضته بقولها:

- طيّب، عظيم، لكن القراريط يا سيدى تلزم لها فلوس!. وأنت عارف أنك يد وراء ويد قدّام، وعَمَّال تقول: يا هادى استر، هل تعرف أن "فاتن" بنتك محتاجة إلى درس كيمياء حيوية، والدكتور طلب منها ألفين من الجنيهات، ألف مقدم وألف عند نهاية الحصص؟. شعر أسامة أن مفاصله سابت قليلاً، فكل ما ادّخره بعد تعبه وشقاه فى مشروع الأرانب لا يزيد عن ألف وخمسمائة جنيه لا غير، وهو يفكر خلال هذه اللحظات جدّياً فى شراء الأرض، وفى مصارحة حياة بضرورة بيع سواريها، ليضيف ثمنها إلى مبلغه المدَّخر ويشترى بما يتحصل القيراطين إن أمكنه ذلك.

ردّ على زوجته بغيظ:

ـ بلا دروس كيمْياء حيوية بلا كلام فارغ، المفروض أن تنتبه البنت إلى دروسها وتذاكر كيمياء حيوية وخراء. يعنى هى بعد ما تتخرج من الجامعة سيصبح وضعها أفضل؟!. الأمور لن تختلف فى أى شيء يا أختى؛ لأنه مستحيل أن تشتغل بسرعة؛ الدنيا مقفلة والبطالة مخلّية الشباب على قفا من يشيل فى كل مكان.

تركت حياة ما بيدها، وضربت كفّاً بكف، معلنةً غضبها من كلامه، وتساءلت إن كان يريد لابنته أن تترك الجامعة ليستريح، أو أن تظل ترسب كل سنة بسبب الكيمياء الحيوية التى تعيد دراسة السنة النهائية للمرة الثالثة من تحت رأسها، وأن البنت لو كانت حصلت على الدرس الخصوصى عند الأستاذ إيَّاه مْن أول سنة، لكانت متخرجة فى الجامعة قبل عامين.

لم يعرف أسامة بماذا يرد عليها، كان مستوعباً منطقها ومقتنعاً بصحته، لكنه كان يشعر أيضاً بضيق بالغ، وعذاب من ينفخ فى قربة مقطوعة دون جدوى، فلطالما حلم بالتقدم خطوة إلى الأمام، وتمنَّى التغيير والانتقال بحياته وحياة أسرته الصغيرة من عالم الشقاء والمعاناة إلى حافة الراحة والأمان. لقد حصل على إجازة مرضية لمدة أسبوع نوى توضيب قفص الأرانب خلاله، فهو يريد لمشروعه الصغير أن يكبر وينطلق، بل إنه يحلم دائماً بالاستقالة من عمله نهائياً والتفرغ تماماً للأرانب التى اكتشف أنه يمكنه لو رعاها واهتم بها كما يجب أن يحصل منها على مدخول شهرى كبير، لا يمكن مقارنته بأية حال من الأحوال، بما يتقاضاه من وزارة الصحة، ولو أن لديه الإمكانات والمكان الملائم لتوسَّع فى مشروعه فوراً، ثم إن ما عرفه اليوم من ندوة التلفزيون بخصوص الأمم المتحدة، نبَّهه وحمّسه

للغاية وأشعره بضرورة التعامل مع مشروع الأرانب بجدية أكثر؛ فهو مشروع ذهبى يدر أرباحاً مجزيةً لا بأس بها.

سرح أسامة بأفكاره وذهب بعيداً مثلما يفعل عادة كلما تمنى أمنيةً من الأمنيات، تصوّر نفسه وقد تملّك قطعة أرض أقام عليها مزرعة أرانب ضخمة وفقاً للأصول العلمية الحديثة فى تربية الأرانب، مزرعة يسميها "الأرنب الذهبى"، وتصوّر نفسه جالساً خلف مكتب فخم فى مبنى الإدارة يتكلم فى إعلان تلفزيونى عن إنتاج المزرعة بصفته صاحبها وراعيها. صمّم أسامة إعلاناً سريعاً عن المزرعة، ثلاث حسناوات شقراوات يحطن به وهنّ يتراقصن ويتمايلن، بينما هو يتحدث عن مزايا لحوم الأرانب اللذيذة، ثم يعلن أن سرّ السعادة يكمن فى تذوق لحم الأرانب الذهبى، وبعد ذلك تقول أجمل الفتيات فى لقطة مكبّرة تبرز شفتيها المثيرتين وأسنانها الوضاءة وأكبر مساحة ممكنة من صدرها الممتلئ إن الأرنب الذهبى هو لغة العصر وسمة التطور.

أفاق أسامة من سرحانه على صوت زوجته وهى تقول:

- أسامة، أنت نمت وأنت قاعد فى مطرحك، يا الله قم، غيِّر هدومك واغسل يديك لأن السفرة جاهزة.

رنَّ جرس الباب، وذهبت سامية لتفتح وعادت بصحبة فتحية بنت الجيران، وقد جاءت كمبعوثة من أمها وحاملة لهدايا أبيها العائد من عمله فى الخليج منذ يومين.

وهنأتها حياة بسلامة وصول الأب، وشكرتها على الهدايا، مؤكدة أنها لابد أن تزورهم مع أسامة لتحية العائد، فلما انصرفت الفتاة فتحت سامية كيس الهدايا، لتجد بداخله قطعة قماش بورّدات كبيرة

ذات ألوان فاقعة، ونصف كيلو شاى خشن، ومثله تقريباً حبّ فلفل أسود.

تتهدت الأم بارتياح شاكرةً الجيران أصحاب المعروف، ولفتتهم الكريمة ثم إنها توجهت إلى زوجها قائلةً:

ـ ربنا يخلّيه لعياله، سفره إلى الخليج حَلّ لهم مشاكل ما لها حصر. بكره ربنا يكرمنا، وفاتن تتخرج وتشتغل مُدرّسة وتسافر لبلد من البلاد.. والنبى يا أسامة، هات من القفص فردتين لنردّ هدية الحاجّة أم فتحية.

نظرت سامية بتأفف إلى هديّة الجيران وقالت:

ـ لون القماش فلاحى جداً، مستحيل أحطّه على جسمى، ثم إن الألياف الصناعية فظيعة فى الحرّ، إياكِ يا ماما تقولى فصّلى القماش يا سامية، أنتِ وأختك.

انفجرت الأم فى البنت التى لا يمكن إرضاؤها أبداً وقالت:

ـ يعنى نرميه، نرمى القماش، أقول للناس ردّوه لأنه ألياف صناعية وذوقكم بلدى. خلى عندك ذوق، وحطّى فى عينك حصوة ملح. كفاية إن الرجل فكّر فى هدية لنا.

خرجت البنت من المطبخ وهى تبرطم حانقةً، وخرج أبوها إلى الحمّام ليغتسل بعد أن تابع المشهد كله دون تعليق؛ لأنه لا يفهم فى القماش كما تقول زوجته. لكنه شعر بالضيّق بسبب المشاحنات التى لا تنتهى بين امرأته وابنته الصغرى. كان يجد الأم محقّةً دائماً، ويعذرها كثيراً نظراً إلى صعوبة الحياة المتزايدة، التى تضطر إلى مواجهتها يوماً بعد آخر، وكم قدر لها محاولاتها الدءوبة لجعل حياة ابنتيها تسير على نحو أفضل، لكنّه كان يُكِنُّ إعجاباً خاصاً لصغيرته

المشاغبة؛ فهى متمردة، ذكيّة، ترفض الانصياع للأمر الواقع، وتنشد الاختلاف عن الآخرين دائماً، وكم تمنى لو كان مثلها فى أى يوم من الأيام وامتلك هذه القدرة الهائلة على المحاجّة والرفض، لكنه لم يكن مثلها أبداً، لم يستطع قول: "لا" فى أى وقت من أوقات عمره، لم يقل "لا" لأمه أبداً، حتى عندما كبر ونضج ودخل ديوان الرجال، وأصرّت على تزويجه من حياة؛ لمجرد أنها سترث عن أبيها ربع بيت قديم فى حى المنيرة، فحياة لم تكن فى يوم من الأيام فتاة أحلامه؛ فهى قصيرة بثديين صغيرين، بينما هو يفضّل، ومازال، المرأة الريّانة ذات الصدر الضخم التى تدخل ضمن برنامج أمانيه الصغيرة التى يحلم بتحقيقها يوماً ما؛ ليفعل ما كان يفعله أحياناً فى صدر شبابه الأول؛ حين كان يجلس فى المقهى ويتابع الرائحات والغاديات من النساء بعينيه، ثم يغمز لواحدة منهن ذات صدر سخى وأرداف وافرة، ويتعقبها فى الطريق ليغرق مسامعها بأرق كلمات الغزل والغرام؛ حتى تضعف وتلين وتوافق على لقائه فى كازينو الأرنب السعيد.

لكنه على رغم عدم إعجابه بحياة، كيّف نفسه معها، وبات يتقبلها شيئاً فشيئاً، خصوصاً أنها تلبى رغباته دائماً، ولا غبار عليها كأم رءوم وطباخة ماهرة، وسيدة بيْت تعرف كيف تحبّق وتدبّق ملمّات الغلاء. لكن كل ذلك لم يمنعه من أن يردد لنفسه بين الحين والحين، أنه من الصعب، أن يمضى المرء حياته مع امرأة واحدة فقط - بالطبع لم يفكر أسامة فى أن المرأة يمكن أن تنظر إلى الأمر بمنظاره أيضاً - وهو على أية حال، دجن نفسه على حياة، ولم يقل لها: «لا» أبداً؛ ربما لأن هذه المرأة لم تمنحه الفرصة ليقولها لها ولو مرة واحدة بسبب أسلوبها الناعم، وطريقتها المرنة

فى إقناعه بالأشياء؛ وربما لأنه شطب هذه الكلمة من قاموسه منذ زمن بعيد ضماناً لأن تمضى الحياة به فى أمان دون التعرض لمشاكل أو متاعب المواجهة الرافضة مع الآخرين. هو لا يستطيع أن يقول: «لا» مثلما تقولها ابنته ببساطة ويسر، حتى فى العمل، لم يقل لرؤسائه: «لا» فى أية مناسبة، بل هو يظن أنه لم يعد يقرأ هذه الكلمة منذ سنوات مضت، لا فى الصحف ولا فى المجلات، ولم يعد يسمعها من الناس إلا نادراً، أما يده فلم تخطّها بقلم منذ زمن قد يعود إلى أيام دراسته الابتدائية عندما كان يهتف مع التلاميذ ويقول: «لا للاستعمار» ثم يكتبها عند عودته إلى الفصل عشرين مرة فى الكراس. حتى فى الانتخابات العامة التى يمقتها ولا يجد أدنى ضرورة لها، بل يشعر أنها مسرحية سخيفة، يتكرر تمثيلها بين الحين والحين، لم تخطّ يده كلمة «لا»؛ إذ كان مضطراً لقول: نعم؛ لأنه يشارك فيها عادةً بناءً على تعليمات رؤسائه فى الوزارة، فيذهب إلى المقر الانتخابى وكأنه أرنب صغير ممسوك قسراً من أذنيه لا يقوى على الإفلات، ويكتب منصاعاً الكلمة التى حفظها عن ظهر قلب وأجاد قراءتها وكتابتها «نعم».

هيّأ أسامة نفسه لالتهام وجبة غداء مكونة من أرز وملوخية بالأرانب، وهى الوجبة التى كانت حياة قد قررتها على الأسرة منذ بداية مشروع الأرانب بمعدل أربع مرات أسبوعياً طوال شهور الصيف. لم يكن أسامة يضيق بهذه الوجبات على الإطلاق؛ فهو مستعد لأكلها على امتداد أيام الأسبوع، مادامت هى الوجبة المغذية الممكنة المتاحة للأسرة، لكن قلقاً بدأ يداخله بسبب تأفف وتذمر ابنتيه منها، خصوصاً الصغرى ذات اللسان السليط التى لا تكف عن التهكم

والسخرية فتقول إنها كلما تطلعت إلى المرآة تشعر بأن أذنيها تكبران وتتموان إلى الأعلى كآذان الأرانب، أو تنادى على أختها لتدعوها إلى الغداء كلما وضعت أمها طبق الأرانب المحمرة على المائدة قائلة:

- يا الله يا فاتن، تعالى، ابتدأ فيلم أفواه وأرانب.

كان أسامة يخشى أن يفقد أعصابه ذات مرة ويلطمها على خدها بسبب سخريتها السمجة هذه التى تمتد لتنال من مشروع الأرانب ذاته فى كثير من الأحيان، فتطلق عليه مرة «فشروع الأرانب»، ومرة أخرى تسميّه: «مشروع الخطة الأرنبية الأولى». غير أن أسامة يحاول التحكم فى أعصابه عادةً ليقينه أن الفتاة لا تدرك الآفاق المنتظرة من وراء هذا المشروع، والآمال التى يعقدها عليه؛ حتى ترفع الأسرة مستوى معيشتها وتعيش فى المستوى الإنسانى اللائق، وكان يلتمس لها العذر كذلك؛ لعلمه أن البنت المسكينة، ليست إلا واحدة من أبناء الجيل الجديد الضائع الذى لا يعرف كيف يتحمل المسئولية ولا كيف يتحايل لمواجهة أعباء الحياة، وهو جيل يرغب أيضاً فى الكسب السريع دونما جهد أو كفاح يبذله فى سبيل الوصول إلى ما يريد؛ لأنه يرى الكثيرين فى كل مكان يعتلون الأمواج بسهولة ويسر، ويحققون أهدافهم عبر صفقات سريعة وأعمال وهمية فاسدة، باتت هى الأسلوب المهيمن على دنيا الأعمال.

جلس إلى طاولة الطعام، وراح يأكل ملتهماً الجزء المفضَّل لديه من الأرنب ألا وهو المتن، فكّر وتردَّد كثيراً قبل أن يستجمع شجاعته ويصارح زوجته برغبته فى بيع سواريها الذهبيين وشراء قيراطين من الأرض، قال لها إنه سيعوضها عنهما فيما بعد، عندما يكبر مشروعه ويزدهر ويحصل على مساعدة الأمم المتحدة، رجاها من كلّ قلبه أن

تطيل بالها عليه وتتسلّح بالصبر ولن تندم أبداً، وذات يوم سعيد سوف تتذكر كلماته هذه بعد ما ترى بأم عينها حياتهم وقد شملها العزّ وجرى الخير فيها كل مجرى من المكاسب الهائلة التى ستعود عليهم من المشروع، الذى سيفتح بدوره آفاقاً بلا حدود لمشروعات مستقبلية أخرى ربما جعلتهم من أصحاب الملايين.

راح أسامة يعدِّد لامرأته بعضاً من أسماء أشهر رجال الأعمال فى المجتمع ممن بدأوا من الصفر وبرأسمالٍ لا يُذكر، مثلما يفعل هو نفسه الآن، لكنهم نموا وكبرت أعمالهم بفضلِ شطارتهم وذكائهم ومثابرتهم على العمل، ثم لوقوف زوجاتهم إلى جانبهم ومؤازرتهن لهم، فهذا بدأ بكشك سجائر صغير بميدان العتبة الخضراء، لكنه تحول الآن إلى صاحب واحدة من أهم ثلاث شركات فى البلد للاستيراد والتصدير، وذاك بدأ بفرش فاكهة على أول ناصية بشارع عرابى، وصار الآن صاحب أكبر مصنع لتعليب الفاكهة وحفظها فى الشرق الأوسط، والثالث...

ظل أسامة يتابع كلامه لحياة فى محاولة دءوبة لإقناعها بالجدوى الاقتصادية العائدة عليهم من بيع ذهبها، ولم يترك لها فرصة لتعترض أو تناقشه، بل أخذ يلامس وركها القريب بفخذه فى حركة غزلية غير عفيفة، ثم قال:

- بكره لما الفلوس تدور فى أيدينا يا حياة نعمل - إن شاء الله - أول مشروع من نوعه فى مصر وربما فى أفريقيا كلها. مشروع فكّرت فيه لمّا كنت فى الحمّام قبل الأكل وهو مشروع الأرانب المعلّبة.

- أرانب معلّبة؟ تساءلت حياة وهى تكسر بأضراسها دماغ الأرنب المحمَّر؛ حتى تستخرج مخَّه الصغير من داخله وتلتهمه بتلذذ، بينما

نظرت فى استنكار إلى سامية التى أطلقت ضحكة ساخرة، دفعت أسامة إلى أن يبتسم رغماً عنه، ويتابع كلامه قائلاً:

ـ افهمى يا بنت يا عبيطة، أى نعم أرانب معلّبة، أرانب مفرومة معلّبة، أرانب معلّبة سريعة التحضير، أرانب بالملوخية الخضراء، كبد وقوانص أرانب معلّبة، أرانب معلّبة بصلصة الطماطم، أرانب معلّبة بالمايونيز، أرانب معلّبة لمرضى السكّر وللرجيم، ما رأيكم؟

كان يتحدث بحماس وانفعال بالِغيْن. فرفع طبقه دفعة واحدة إلى فمه ليشرب قليلاً من الملوخية دون أن يستخدم الملعقة، وراح ينظر إليهما ليرى مدى تأثير كلامه عليهما، فلاحظ نظرات القرف وعلامات الاستياء على وجهها، لكنه لم يدرك وهو فى قمة استغراقه فيما يقول، إنها كانت متأففةً بسبب التهامه الملوخية بهذه الطريقة، فاستمر فى خطابه لهما قائلاً:

ـ فكرة جهنمية والله العظيم يا حياة، بيعى الأساور واسمعى كلامى؛ لأننا لابد أن نتحرك ونكبر، ونتحول إلى مشروع بالمعنى الحقيقى، فالزمن زمن شطارة، ولازم أن يفكر الإنسان ويشتغل، والدنيا قدّامنا مفتوحة، لازم نفتح لها صدرنا، ونجازف فيها بالحكمة والعقل.

لم تعرف حياة بماذا ترد عليه؛ فأسامة قادر على التأثير عليها، وإقناعها دائماً، مثلما هو قادر على إرضائها. إنها تحبه وتؤمن به، بل تشعر بدرجة من الدُّونية تجاهه، وتعتقد أنها بزواجها منه أعطتها الدنيا أكثر مما تستحق بكثير، فهو من عائلة محترمة ذات اسم، وجدّه ناظرالزراعة، إضافة إلى أنه وسيم، طويل، عريض، أبيض، يسدّ بجسده الباب، بل هو أوسم رجل فى الدنيا من وجهة نظرها. أما

هى، فشحيحة الملاحة، وأبوها كان مجرد صاحب محل لكُلف الخياطة يبيع الأزرار والخيطان وقماش البطانات والترتر وخرّج النجف والإبر والدبابيس، وعلى رغم أن حياتها معه لم تكن ميسورة أبداً، وأنها كانت تغتاظ منه كثيراً بسبب شخصيته اللامبالية بشؤون البيت عندما كانت تناقشه فيها، وعلى رغم فشل كل مشروعاته السابقة إلا أن حياة كان يداخلها شعور غامض بأن زوجها لابد أن يُوفَّقَ وينجح ذات يوم بعد أن،يُعَوِّض الله صبره وصبرها خيراً، فهو طيّب ومجتهد، وفى حاله تماماً لا يضمر شرّاً لأى مخلوق كان. لكن المشكلة أن السوارين هما كل ما خرجت به من الدنيا، بعد أن اشترتهما بثمن غال هو حصتها من بيت أبيها، الذى بيع بثمن بخس؛ لأن البلدية أدخلته ضمن خريطة إعادة تنظيم الحى وتوسيع الشارع الواقع فيه.

بدا كلامه عن المشروع مثيراً لها، ويحمل الكثير من الآمال العريضة، لكنها كانت متوجسة، ولا تدرى ما الذى يجب أن تفعله على وجه التحديد، أتوافقه أم ترفض؟. هى تخشى خسران الجلد والسَقط إذا ما جارته وباعت السوارين، لكنها أيضاً كانت لا ترغب فى كسر خاطره، وإشعاره بأنها تخلّت عنه وقت احتياجه إليها، بدت كالموزَّعة بين نارين، لكنها فى النهاية قالت لروحها فليكن ما يكون، وسلّمت أمرها إلى الله، وقبل أن تجيبه زفرت بحرارة وطرقعت أصابعها فى قلق ثم قالت:

- طيب يا سيدى، الأمر أمرك والشور شورك، لكن وحياة العيال ومعزّتى عندك، فكّر وتأنَّ قبل أية خطوة؛ لأن الزمن صعب، والدنيا غلاء، والفلوس عمَّاله تطير وكأنها عصافير.

أعلنت سامية غضبها الشديد، ودفعت بكرسيّها بعيداً عن المائدة، وقالت دون أن تكمل مضغ اللقمة التى فى فمها:

- إياكِ يا ماما تبيعى الأساور. لو فكّرتِ فى بيعهم فى أى وقت حطّى الفلوس فى البنك. فكّرى فى الخسارة لأنك لن تُحصّلى من بيعهم لا أبيض ولا أسود وأنا حذّرتك والسلام. غلى الدم فى عروق الأب من فرط غيظه وغضبه من تلك الوقاحة الساخرة التى تكلّمت بها ابنته. فكّر أن يهبّ من كرسيّه ويلطمها على صدغها، وأن يقلب المائدة كلها على رأسها حتى تتسربل بالملوخية تماماً ولا تعرف مطرح رأسها من رجليها، لكنه وكما يفعل عادة فى مثل هذه المواقف، ضبط نفسه، وانسحب بهدوء إلى الداخل معلناً عن رغبته فى النوم.

نعس ونام وحلم أثناء نومه بالأرانب وبسامية تربت عليه وتعلن أسفها واعتذارها عما بدر منها تجاهه، وتهديه سلسلة مفاتيح فضيّة يتدلى منها أرنب ظريف، وبمديره فى الوزارة وقد تحوّل إلى أرنب صغير قام بحمله فى حقيبة الأرانب إياها؛ ليسلّمه إلى الفرارجى ليذبحه ويسلخه... أرانب كبيرة على الطريق ذات أثداء ضخمة تبتسم وتتمايل فى دلال، وأسامة يحاول الهجوم عليها واحتضانها لكنها تزوغ منه بسرعة... نشرة الأخبار فى التلفزيون وهو يتابعها، فيكتشف أن القوات الدولية فى سراييفو كلها عبارة عن أرانب صغيرة ترتدى الأزرق التقليدى للأمم المتحدة وتعتمر قبعات سماوية جميلة... حياة تتحول إلى أرنب ذهبى ضخم وتقول له بنعومة: الأمر أمرك يا أسامة، لكن فكّر والنبى واحسبها قبل عمل أية خطوة.

هبَّ أسامة من نومه قلقاً تقلّب فى الفراش، فوجد حياة ممددة على جنبها إلى جواره، مقيّلة هى الأخرى، أحاطها بذراعه والتصق

بها فى حميمية أدهشتها، فاستدارت ليكتشف أنها لم تنم بعد فقال لها:

- الثوم فى تقلية الملوخية كان زيادة بعض الشىء. أصلى حلمت مجموعة أحلام غريبة ملخبطة، ما لها أول من آخر.

ردّت حياة وهى تتثاءب وتخلص نفسها منه بلطف:

- خير.. اللهم اجعله خيراً، كنت غطٍّ نفسك بغطاء خفيف قبل النوم.

ثم طلبت منه إعداد شاى العصارى، وأن يناديها لتشربه معه عندما يجهز؛ حتى تنعس قليلاً لأنها لم تنم بعد.

٢

بدا كل شىء غير عادى فى حياة أسامة صباح ذلك اليوم المشئوم، فقد وصل الوزارة متخلفاً بضع دقائق عن موعد العمل الرسمى؛ بسبب تأخّره فى النوم حتى قرب الفجر، بعد سهرة طويلة أمضاها بصحبة أسرته فى عرس فتحية بنت الجيران. كان قد ارتدى ملابسه على عجل، وترك امرأته غارقة فى النوم دون أن يوقظها لتعدّ له طعام الإفطار كما جرت العادة، كما أنه لم يقم بطقسه الصباحى الدائم المتمثل فى إلقاء نظرة سريعة على الأرانب فى القفص. وأثناء وقوفه على محطة الأتوبيس تذكر أنه نسى ساعة يده التى يحرص على ألا ينساها، ورأى فى شرفة المنزل المقابل للمحطة غسيلاً منشوراً أسود اللون يغطى الحبال كلها؛ فانقبض قلبه وتطيَّر، وزاد فى ضيقه مرور ذلك الشحاذ المجذوم بأطرافه المتآكلة وأنفه المشوه فشعر بتقزز واقشعرّ بدنه، وهو يحاول تفادى النظر إلى الرجل المسكين الذى أجهز على بقية مزاجه المتعكر فى ذلك الصباح.

عندما انكبَّ على عمله فى الوزارة، ليدوّن فى سجل المواليد إنتاج مدينته بأحيائها المختلفة من الأطفال خلال أسبوع منصرم، تزايد اكتئابه وضيقه؛ إذ بدا له حجم العمل المطلوب منه كبيراً إلى درجة لا

تحتمل، وتحتاج موظفاً إضافياً يشاركه فيه. لعن في سرِّه دفتر المواليد، والمواليد، والناس التى لا تكف عن تفريخها، وهيئة تنظيم الأسرة؛ لأنها لا تلعب دوراً فعالاً فى تحديد النسل، وتكتفى بإرسال تحياتها إلى الجمهور فى إعلانات التلفزيون، ثم واصل عمله بضيق وتكاسل ولامبالاة شديدة.

فى حوالى الساعة الثانية عشرة والربع، رنَّ جرس الهاتف الموضوع على مكتب رئيس القسم، بينما كان عبد الحميد الساعى يقلِّب له كوباً من الشاى الكشرى بمعلقة قديمة صدئة. فى هذه الأثناء، كانت سيِّدة عبد العال زميلة أسامة فى القسم نفسه ترصّ قطع الخيار والطماطم فوق الجبن الرومى داخل رغيف الفينو؛ استعداداً لالتهام وجبتها اليومية المعتادة فى الشغل، بينما الرئيس القائد يطلّ بنظراته على الجميع بترفُّع من صورته المعلّقة على الحائط داخل إطار ذهبى كبير.

سعيد بدوى شاعر العاميّة، وماسك سجلّ الوفيات بالإدارة، يحلّ الكلمات المتقاطعة ويفكّر فى اسم لحيوان داجن يتكون من أربعة حروف؛ ليتمكّن من الإجهاز على جميع الكلمات المتقاطعة بكل الصحف الحكومية وغير الحكومية الصادرة خلال ذلك النهار، ممارساً بذلك أسلوبه المزمن فى التعبير عن لامبالاته واستخفافه بالوزارة وطبيعة العمل والعاملين فيها.

حمل رئيس القسم سمّاعة الهاتف وردّ، دون أن يرمش له جفن أو أن يكلف نفسه رفع رأسه عن كتاب عذاب القبر ونعيمه الذى كان يقرأ فيه. وضع السماعة على المكتب ببرود ونادى:

أسامة.

هبَّ أسامة من مكانه كالأرنب المذعور، فمن النادر أن يتلقّى مكالمات هاتفية أثناء عمله فى الوزارة، وخلال الخطوتين اللتين خطفهما بسرعة ليكون حيث مكان الهاتف، تلاعبت به الظنون: هل أصيبت واحدة من البنتين بمكروه؟ هل وقعت العمارة وانهدّت على حياة ومن فيها من السكان؟!. هل أصيب ابن عمه فى حادث سيارة بالطريق؟!.

وضع السمّاعة على أذنه بيد متوترة ثم ردّ بعد قليل:

- يا خبر.. مستحيل.. مستحيل يا حياة!.

أعاد السماعة إلى مكانها بتوتر، وبصعوبة حملته قدماه إلى مكتبه؛ لينكفئ برأسه على دفتر المواليد ويبكى بحرقة أذهلت سيّدة عبد العال فلخبطت نظام الخيار والطماطم على الجبن الرومى، تاركةً الرغيف على ورقة الجريدة التى كان ملفوفاً بها على المكتب، لتدُبَّ على صدرها وقد ظنّت أن واحدة من ابنتى أسامة توفاها الله. أما المتلذذ بعذاب القبر، ومتولى الكلمات المتقاطعة، وعبد الحميد الساعى فقد سارعوا بالالتفاف حول أسامة فى دهشة عارمة محاولين استنطاقه بقولهم:

- لا إله إلا الله، حصل شىء لا سمح الله؟!. تكلم يا أسامة، انطق يا رجل!. ظل أسامة لفترة ينهنه ويغمغم بصعوبة:

- بيتى اتخرب، بيتى اتخرب يا عالم.

وعلى صوت ذلك الشعار الذى أطلقه، تجمع موظفو الأقسام المجاورة. الأرشيف، الصادر والوارد، الميزانية، بعد أن جاءوا من غرفهم ليستطلعوا الحدث المثير. فجأة، كفّ أسامة عن البكاء، ورفع رأسه ثم أغلق سجلّ المواليد الذى شرّت دموعه عليه، ووضعه فى

درج مكتبه ثم أغلقه بالمفتاح. هبَّ واقفاً وهو يكفكف دموعه بمنديل ورقى ناوله إيَّاه شاعر العامية وقال:

- شكراً.. سعيكم مشكور يا جماعة.. بعد إذنكم.

ثم انطلق خارج المصلحة دون أن يحصل على إذن من رئيسه أو مديره.

لم يكن يرى أمامه إلا السواد، ولا يسمع غير رنين كلمات حياة فى أذنيه وهى تقول له: "الحقنى يا أسامة، الأرانب ماتت، ماتت كلها." وما حكته له بعد ذلك بسرعة لتخبره بشكل موجز كيف أن الأرانب قُتِّلَتْ فى مذبحة وحشية قامت بها عِرْسَة سفّاحَة أثناء تواجدهم فى عرس فتحية بنتِ الجيران؛ فقد تسللت العرسة عبر باب القفص، الذى نسيته مفتوحاً بعدما انتهت من إطعام الأرانب وقت صلاة العشاء، لتمتص فى هدوء الليل دم أحد عشر أرنباً، بينما كان جميع من فى البيت نائمين.

أما المواليد التى بلغ تعدادها خمسة عشر أرنباً فى القفص، فقد تكّومت كَتَلٌ صغيرٌ من اللحم الأحمر الدامى، بعد أن واصلت الدراكولا نشاطها متسللةً من الرف السفلى إلى الرف العلوى. "كلهم ماتوا"... هذا ما قالته حياة. "ماتوا يا أسامة، دخلت أحط لهم البرسيم عند الصبح، وجدتهم مرميين"... "الحقنى يا أسامة".

لحق شاعر العاميّة بأسامة عند الدرجة الأخيرة من السلم؛ بصفته مبعوثاً من رئيس القسم الذى لم يقف تماماً على حقيقة الأمر؛ ليتحرَّى ما جرى ويقف إلى جانب المصدوم فى مصيبته، لكن أسامة رجاه أن يعود أدراجه ويتركه لحاله؛ بعد أن ابتدع كذبة صغيرة كمبرر لما جرى؛ إذ أعلن للشاعر - الذى أعلن بدوره بعد ذلك

لجميع المتسائلين فى الوزارة - أنّ فاتن رسبت للمرة الثالثة فى الكليّة بسبب الكيمياء الحيوية.

واسى الشاعر أسامة وتركه، وراح يفكر مندهشاً من سخافة أسامة وقلة عقله "فلترسب البنت، فما معنى التعليم وما قيمته فى بلد كهذا البلد؟. وما قيمة الكيمياء الحيوية فيها أصلاً؟!. فالبنت سواء رسبت، أو نجحت بامتياز، فإنها لن تجد عملاً إلا عند محل كوافير أو كسكرتيرة أو كبائعة فى محل، مثلها فى ذلك مثل الآلاف من خريجى الجامعات. لن تفعل شيئاً بهذه الكيمياء ولا بغيرها، فالبلد لم يعد محتاجاً إلى علم أو كيمياء. لماذا يتجاهل الناس هذه الحقيقة ويدفنون رؤوسهم فى الرمال كما النعام؟!. ولماذا لا يتخذه أسامة آية وعبرة؟!. فهو متخرج من كلية الهندسة، وحاصل على دبلومة عليا فى القوى الكهربائية، ومع ذلك يعمل فى قسم الإحصاء مع أسامة، ولولا نفوذ زوج عمته فى الوزارة وتوسطه بعد تخرجه لتعيينه فيها، لكان الآن على قارعة الطريق يتسكّع أو يتسوّل ككثير من خريجى الجامعات فى هذا الزمان.

سار أسامة كالمخمور يتخبط فى الشارع، لا يعى من أمره شيئاً، ولا يعرف إلى أين يتجه فى هذه اللحظات السوداء، التى مرت عليه وكأنها دهر.

فى البداية أخذته قدماه إلى طريقه المعتاد نحو محطّة الأتوبيس، وقف ينتظر قليلاً، بدت الدنيا فى نظره أضيق من خرم إبرة، ومظلمة بلا أى معنى، بعد فترة وجد نفسه يترك المحطة، ويسير كالقطط الضالة فى الشوارع.

كانت أحداث الأسبوع السابق تتلاحق فى رأسه بسرعة

مذهلة،... حياة باعت أساورها وأبدت حماساً مفاجئاً لشراء الأرض والتوسع فى مشروع الأرانب. ذات مساء فاجأته بأفكارها الجهنمية هى الأخرى؛ إذ صنعت قبّعات نسائية من فراء الأرانب قالت إنها ستلاقى إقبالاً منقطع النظير من المحجبات خلال فصل الشتاء القادم؛ لأنها أنيقة وتدفئ الرأس، وأرته أيضاً علب مناديل ورقية مغطّاة بفراء الأرانب صنعتها بنفسها وزيّنتها بالترتر وخَرَج النجف بعد أن رشّتها بألوان رشّ متعددة لتضفى عليها بهجةً وأناقة، وأخبرته أنها قامت بجولة على أصحاب المحلات لبيعها وهى فى انتظار طلبيّات منهم... رحلة البحث عن قطعة أرض بثمن يتلاءم والمبلغ الذى جمعه لم تنقطع، لكن دون جدوى، فالمبلغ المتحصل من بيع ذهب حياة، بالإضافة إلى مدخراته لا يكفى... فاتن تعلن احتجاجها لعدم حصولها على فلوس الدرس الخصوصى، وتهدد بترك الكلّية نهائياً... حياة تكتشف بالصدفة خطابات غرامية تخفيها سامية وراء قفص الأرانب تعرف منها وجود علاقة بينها وبين رجل يكبرها بستة عشر عاماً، وأنها تنوى الزواج منه، على رغم أنها مازالت فى سنتها الأولى بالجامعة... ماسورة الصرف الصحى الرئيسية فى العمارة تنفجر بسبب انتهاء عمرها الافتراضى. كما قال السبّاك. منذ عشرين سنة على الأقل، وصاحبة العمارة تطالب كل شقة بدفع مائتى جنيه لاتخاذ اللازم واستبدالها بماسورة جديدة، وإلا يبقى الوضع على ما هو عليه، وتخرّ الماسورة داخل الشقق، ومن لا يعجبه يضرب دماغه فى الحَيط.

ظل أسامة يهيم على وجهه، لا يعرف إلى أين يتجه، كان يدرك شيئاً واحداً فقط هو أنه لا يرغب فى العودة إلى البيت، ولا يريد

الذهاب إلى العمل، لا يريد أن يتعامل مع أى مخلوق، لا حياة ولا البنات، ولا عبد الحميد الساعى، ولا شاعر العامية ولا أى إنسان آخر يعرفه. هو يريد فقط أن يموت ويستريح من الدنيا وقرفها فى التو واللحظة، فكّر أن يرمى نفسه تحت أتوبيس أو قطار، أن يذهب إلى شاطئ النيل ويقفز إلى الماء، أو أن يبتاع سمّاً للفئران من أقرب صيدلية تقابله ويتجرّعه بسرعة، لكن الشجاعة لم تواتِه لتنفيذ أىّ من هذه المشروعات العَدَمية، كما أن نفسه صعبت عليه جداً فاكتفى بالبكاء المرّ أثناء سيره.

بعد انتهاء المكالمة التليفونية العاجلة مع أسامة، ظلت حياة تنتظره فى البيت حتى الساعة الثالثة ظهراً، وهو الموعد المحدد لدوران مفتاحه فى قفل الباب، فلما لم يأت وهو الذى كانت تتوقع حضوره من فور سماعه بكارثة الأرانب أخذ القلق يساورها، وعند وصول فاتن وسامية من الجامعة قبل المغرب، كانت الأفكار السوداء قد التهمت أعصابها وجعلتها نصف مجنونة؛ إذ كانت تفكر فى احتمال أن تكون سيّارة قد صدمت زوجها، أو أن الأتوبيس الذى استقله غرق فى النيل، أو ربما داس على سلك كهربائى مكشوف فصعقه كما حدث لبعض الناس، أو أنه مرّ بجوار منزل قديم آيل للسقوط فانهار فوق رأسه. مرت بخاطرها احتمالات شرّ عديدة قد تكون وراء غياب الرجل الذى يأتى فى موعده دائماً. اتصلت بابن عمه هاتفياً؛ ظناً منها أنه ربما يكون مرّ عليه فى البيت، لكنها لم تجده، وبينما كان مؤذّن المغرب فى الجامع القريب ينادى: "حىّ على الفلاح" بصوته الخشن الأجشّ، أعلنت حياة لبنتيها وهى تلطم خدّيها أن أباهما صار فى عداد المفقودين.

تضاءلت مصيبة الأرانب فى عين حياة، بالنظر إلى الطّامة الكبرى التى تواجهها فى هذه اللحظات، وبدت مشكلة علاقة سامية بالرجل الكبير ومشكلة ماسورة المياه من الصغائر بالنسبة إليها.

ارتدت فستان الطوارئ الكحلى على عجل، وهو الفستان الذى تحتفظ به خصيصاً ليلائم مناسبات العزاء فى المآتم، وزيارات المرضى، والمباركة بالنجاح، وعمل الواجب مع الأقارب والأصحاب فى الأفراح، ثم إنها اصطحبت البنتين فى رحلة بحث عن الرجل المفقود.

توجهت حياة لأقسام البوليس، واستقبالات الطوارئ بالمستشفيات العامة، وسألت كل المعارف والأقارب، وحتى نهاية الليل لم تكن هناك نتيجة مجدية من البحث، الذى انضم إلى فريق القائمين به ابن عم أسامة بعد انتهاء عمله كموظف خزينة فى أحد الملاهى الليلية.

أعلنت حياة أنها ستنتحر... ستموّت روحها... ستشعل النار فى جسدها إذا لم يعد أسامة. تمنّت أن يعود إليها بأى شكل، وبأية حال، حتى لو عاد أعمى، أو مشلولاً، أو مجروحاً، أو مصاباً بعاهة لو كان قد تعرض لحادث ما، المهم أن يبقى على قيد الحياة.

مضى أسبوع كامل، وأسامة مختفٍ كأنه فصّ ملح وذاب.

استدعى البوليس حياة والبنتين وزملاءه فى وزارة الصحة لاستجوابهم، فمن المحتمل أن يكون سبب غيابه جنائياً، ولكن كل الأطراف المستجوبة أفادت أن أسامة كان شخصاً مهذباً مسالماً، فى حَالِهِ دائماً، لم يناقش أو يجادل فى أىّ أمرٍ من الأمور، وهو - وفقاً لأقوال مديره العام الأستاذ فهمى عبد العال - "مطيع جداً، وينفّذ ما يُطلب منه بهدوء، وبدون مشاكل، وكان آخر من يقف فى طابور الجمعية التعاونية للعاملين فى الوزارة ليصرف مستحقّاته من السكر

والزيت واللحم، ولم يكن يشاحن أو يصارع كما يفعل العديد من الموظفين الآخرين؛ لكى يحصلوا على حصصهم من لوازم البيت قبل غيرهم".

أعلنت حياة حالة الحزن العام فى البيت فامتنعت عن مشاهدة مسلسل السابعة والربع فى التلفزيون، وهو المسلسل الذى تحرص على مشاهدته بانتظام ودأب مهما كانت الظروف، حتى فى الوقت الذى كانت البنتان تذاكران فيه؛ استعداداً لامتحانات آخر السنة الدراسية. كما أنها قننت طعامها؛ فلم تعد تفطر، بل صارت تكتفى بأكل لقمة صغيرة مع الشاى بعد الظهر بعد إلحاح من فاتن وسامية، أما الفاكهة فلم تُدخِلها البيت منذ غاب أسامة، بالإضافة إلى أنها لم تلبِّ دعوة صاحبةٍ لها تسكن الشارع نفسه لحضور حفلة زار على رغم ولعها الشديد بحفلات الزار وتمنيها أن تساعدها ظروفها المالية ذات يوم لتقيمها فى البيت.

ذات صباح، وبعد مرور أسبوع كامل على غياب أسامة، كانت حياة تجلس على الأرض قبالة شيخ عجوز يفتح المندل، ويتمتم بتعويذات غير مفهومة بحثاً عن الرجل المفقود، ولتعيين موقعه فى المدينة، وقد تحلَّقت حولها فاتن وسامية وأم فتحيّة التى كانت قد جاءت بالعجوز؛ باعتباره خبير مندل مختصاً كمساهمة منها فى حلّ لغز الزوج الضائع منذ أسبوع. رن جرس الباب، قامت فاتن لترى من يكون الرنّان، وهى تنهر سامية، وتطالبها بالسكوت بعد أن ضاقت بتعليقاتها الساخرة المتهكمة على فاتح المندل، الذى أبدى استياءه أيضاً وأعلن عدم قدرته على التركيز؛ إذا ما استمرت البنت فى تعليقاتها، وما إن تبادلت فاتحة الباب بضع كلمات مع القادم ذى

الجلباب الطويل والعمّة حتى أطلقت صرخةً رهيبةً، سقطت على إثرها مغشياً عليها، بينما هبّت حياة وسامية والجارة وفاتح المندل إليها عند الباب. أصيب الرجل القادم بالارتباك بعد أن تجمع الجيران حوله أيضاً؛ إثر سماعهم صرخة فاتن، بدا فاتح المندل هو الوحيد المتماسك بين الجميع فسارع بسؤال الرجل المُعَمّمَ عن هويته فأفاد:

- أنا تربى حوش رستم الليثى، وأظن أن بيت الأستاذ أسامة ابنه هنا.

من فور سماعها كلماته، تركت حياة ابنتها الغائبة عن الوعى، والتى سارع الجميع لمساعدتها، فقرّبوا بَصَلَةً من أنفها، ورشوا على وجهها ماءً بارداً، ودلّكوا كفيها وجبهتها بكولونيا الليمون المتواضعة ماركة «الثلاث خمسات» التى كان أسامة يحتفظ بها لاستخدامها بعد حلاقة ذقنه عادةً. أمسكت حياة الرجل من كتفيه فى محاولة منها لاستنطاقه بأسرع ما يمكن، فنطق أخيراً وأعلن عثوره على أسامة فى آخر الليلة الماضية بالصدفة وأثناء مروره بالترب. وأنه لم يتعرف عليه فى البداية وظنه لصاً ينوى سرقة مقبرة أو لمّ عظام الميتين ليبيعها لطلبة الطب، خصوصاً أن شكله كان متسخاً وذقنه طويلة، والظلام يغطى الترب. لكنه بدأ يشك فى الأمر عندما اكتشف أن الرجل يبكى ويجلس فى حالة إعياء تام، كما أنه لم يُبدِ أيَّة مقاومة تُذكر عندما هجم عليه وأمسكه من الخلف لاوياً ذراعه كى لا يفر، ثم أضاف إنه سأله عدة مرات عمّن يكون؟، ولماذا هو فى هذا المكان فى هذه الحصة المتأخرة من الليل؟، فلمّا لم يردّ، ظنّ أنه شمّام من شمّامى بودرة المخدّرات، أو أحد زبائن أوكار حقن

الماكسفورت وقد أخذ كمية كبيرة أفقدته الوعى. أخيراً أنهى التربى تقريره للمتحلقين حوله قائلاً: «فلما شعرت أن الرجل حالته خطيرة وربما يموت» وهنا لطمت حياة ودبّت على صدرها ـ «قمت بالتفتيش فى جيبه وجدتُ بطاقته الشخصية فأخذتها وجريت لأبصّ فيها تحت عمود النور، فعرفت الاسم وتأكدت من الصورة، ثم إنى ناديت على ابنى، فحضر وحملناه إلى البيت، وهو موجود طرفنا، وبخير إن شاء الله، لكنه يهذى بكلام غير مفهوم ويقول إن أمه نادته فحضر إليها بسرعة، وطلب منى أن أدفنه معها، ثم إنه يبكى أحياناً ويقول: نعم، حالاً.. حالاً أكون عندك يا ماما».

على ضوء هذه الأحداث المؤسفة، وفى الحال، تحرك وفد مكوّن من حياة والبنتين، وأم فتحية وأبيها، بصحبة التربى لاسترجاع أسامة من مكمنه فى القرافة، لكن سامية اضطرت إلى الانسحاب؛ بسبب فشلهم فى العثور على سيارة أجرة تكفى لخمسة ركاب، على رغم أن التربى يسرَ الأمر عليهم وقرر ركوب الأتوبيس.

ظل أسامة بعد عودته إلى البيت، يحدّق بذهول فى الباكيات النائحات أمامه، ويهذى بكلمات غير مفهومة، ويبكى رافضاً الطعام والشراب. بدا فى عين حياة وكأنه ليس أسامة الذى عرفته وخبرته كما تعرف نفسها؛ فقد نقص وزنه كثيراً، وبات وجهه صغيراً ممصوصاً يشبه رغيفاً من أرغفة مخابز الحكومة الآلية، وعلى رغم أنها كانت رافضة فكرة عرضه على طبيب نفسى كما اقترح ابن عمه؛ خشية الفضيحة، وأن يقال عنه إنه فقد عقله وجُن، فيضيع مستقبل البنتين ولا تجدان من يقبل بالزواج منهما بعد ذلك، وعلى رغم أنها كانت تشك فى دوافع إلحاح ابن العم على ذلك إلا أنها

أذعنت فى النهاية، ووافقت على الفكرة؛ لأن حالة زوجها أخذت فى التدهور أكثر فأكثر، إذ بات يصرخ ويقول إن هناك مؤامرة كبرى ضده يقف وراءها مديره فهمى عبد العال الذى كان يراقبه ويتجسس عليه، وإلا لماذا طلب منه أرنبين، وكيف عرف بمشروع الأرانب أصلاً، واتّهم الأمم المتّحدة بأنها كانت تسعى إلى إفلاسه وجعله على الحديدة، وأنها كانت وراء برنامج التلفزيون الذى أدى فى النهاية إلى بيع ذهب حياة، وقال إن فهمى عبد العال والأمم المتحدة تُآمرا سوياً لإفشال مشروعه، وإن العرسة هى الأداة المنفّذة للمؤامرة، أما حياة وفاتن وسامية، فقد اتهمهن - خصوصاً الأخيرة منهن - بأنهن لا يعرفن قيمته، ولا يتصورن المستقبل الذى كان ينتظرهن، والذى كان يرسمه لهن مع مشروع الأرانب.

وهكذا، جاء ابن العم بالطبيب النفسى الذى قام بتحويل أسامة فوراً إلى قسم الأمراض النفسية بمستشفى التأمين الصحى التابع للوزارة، وقد بات خبر ما جرى لأسامة معروفاً ومنتشراً ومتداولاً فى أوساط عديدة، على رغم محاولات حياة المستميتة للتكتّم عليه؛ حفاظاً على سمعة زوجها وبيتها؛ وحرصاً على ابنتيها الشابتين.

٣

ردود فعل محدودة النطاق حول ما جرى لأسامة من أحداث مؤسفة ووقوعه فى المرض إيَّاه.

□ **خبر فى صفحة الحوادث بجريدة حكومية محافظة عريقة:**

«تم العثور على موظف حكومى فى حالة إعياء وذهول بالغيْن، بمقابر الإمام الشافعى بعد تغيُّبه عن بيته لمدة أسبوع، وقد تبين أن الموظف يُدعى أسامة رستم الليثى (٤٥ سنة)، وهو يعانى من ضائقة مالية مزمنة، وأفادت زوجته أنه اختفى إثر إبلاغها له هاتفياً فى عمله بوزارة الصحة عن مصرع كل الأرانب التى كان يربيها فى قفص بمنزله. وقد انتهت التحريات إلى استبعاد الدافع الجنائى لتغيُّبه، وعلى ضوء ذلك قام السيد مأمور القسم بتسليمه إلى ذويه».

ملاحظة: مع الخبر صورة منشورة للسيد رئيس القسم بثيابه الرسمية، ومكتوب تحتها اسمه مسبوقاً برتبته الوظيفية.

ملاحظة أخرى: لم يحدث أن قام رئيس القسم بتسليم أسامة إلى ذويه، بل قام التربى بذلك، ثم أبلغت حياة القسم بعثورها على زوجها المفقود.

□ **تعليق بصحيفة معارضة معترف بها من قبل الحكومة فقط:**

«مرة أخرى تثبت أكذوبة التمويل الخارجى، وسياسة الانفتاح الاقتصادى؛ فقد أصيب المواطن أسامة رستم الليثى وهو من العاملين فى وزارة الصحة بلوثة عقلية بعد فشله فى الحصول على تمويل خارجى من الأمم المتحدة، وقد قالت زوجته السيدة حياة خليفة لمندوب جريدتنا عندما ذهب للقاء أسرة المواطن فى منزله إنها تنوى رفع قضية على رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون مطالبةً إيَّاه بالتعويض عن الأضرار التى لحقت بها وبزوجها بعد أن وعد التلفزيون من خلال ندوةٍ أذاعها بإمكانية تمويل مشروع الأرانب الذى كان زوجها قد أنشأه، وأنها باعت كل ما تملك لتصرف على هذا المشروع الذى كانت أسرتها تعقد عليه آمالاً عريضة. وأضافت السيِّدة حياة، إن زوجها اعترف لها أثناء مرضه بأنه حاول كثيراً، الاتصال باليونايتيد نِيشينز، لكنه فشل، وأخبرها أنّه ذهب بنفسه أكثر من مرة إلى مقرّ الهيئة الدولية، بعد استماعه لندوة التلفزيون، وحاول مقابلة المسئولين وإطلاعهم على تفاصيل مشروعه ليحصل على التمويل، لكنه كان دوماً يفشل فى مقابلة أىّ من هؤلاء المسئولين، وأنه لم يقابل إلا عسكرى الحراسة المصرى، الذى طالبه وهو يشهر السونكى فى وجهه بالابتعاد الفورى عن مقر الهيئة، وإلا قُبض عليه للاشتباه فيه.

ونحن نسوق هذه الوقائع، لكل أولئك المتشدقين بجدوى التمويل الخارجى لاقتصادنا القومى، ونتساءل عن مدى جدّية المؤسسات الأجنبية فى مساعدة هذا الاقتصاد على النهوض الحقيقى

ومواجهة احتياجات البلاد، ونستنكر أن تستمر عمليات التغرير والاستخفاف بكل البسطاء والشرفاء والمقهورين فى هذا الوطن العظيم».

ملاحظة: مُرفَق بالموضوع صورةٌ لحياة وهى تتحدث لمندوب الجريدة الذى يبتسم ابتسامة عريضة، وقد كتب تحت الصورة: السيدة حياة زوجة المواطن أسامة الليثى وهى تتحدث إلى الأستاذ عمر عبد الرازق مندوب جريدتنا وتقول: خدعونا وخدعوا زوجى الطبيب، ثم بينط أكبر: تصوير نصر الطنطاوى.

□ الهيئة الدولية تلتزم الصمت:

«رفض المتحدث الرسمى للأمم المتحدة التعليق على ما ورد فى جريدة رسمية معارضة من اتهامٍ بخصوص رفض الهيئة لتمويل مشروع صغير لأحد المواطنين بمدينة القاهرة، وقال المتحدث إن الهيئة لا تتوانى عن تقديم العون لبلدان العالم الثالث من خلال هيئاتها النوعية المتخصصة، كما أنها لا تقوم بتمويل الأفراد بأية حال من الأحوال».

□ استجواب فى مجلس الشعب:

«أعلن النائب الشعبى حسن عطية لأبناء دائرته الانتخابية عن اعتزامه تقديم استجواب برلمانى فى مجلس الشعب بخصوص ما جرى لابن الدائرة أسامة رستم الليثى، وقال النائب أيضاً إنه يزمع فتح ملف المساعدات الأجنبية بالكامل، خلال الدورة المقبلة للمجلس؛ حتى تتضح الرؤية أمام أبناء الدائرة وكل المواطنين، وقد أفاد النائب فى النهاية، بأن مكتبه الاستشارى مفتوح لطالبى

دراسات الجدوى الاقتصادية فى كل مجالات قطاع الأعمال، كما أن المكتب يقوم حالياً بإعداد كُتيِّب إرشادى تفصيلى يتناول كل الهيئات الأجنبية التى يمكن أن تساهم فى تمويل المشروعات المحلية بالريف والحضر».

□ فى التلفزيون: أذن من طين وأخرى من عجين

«تابع التلفزيون من خلال برامجه الاقتصادية ما بدأه من حلقات تتناول تنمية المشروعات الصغيرة، وقد أعلنت المذيعة ربط الفقرات لأحبائها كل أفراد الأسرة - وهى تبتسم بدون سبب - أنهم سيسهرون الليلة، وفى ليالٍ أخرى مقبلة، مع نجوم الاقتصاد؛ ليردوًا على كل ما يدور فى الأذهان بخصوص تمويل المشروعات الصغيرة، التى باتت تشغل كل بيت، وكل مواطن طموح فى بلدنا الآن».

□ قضية أسامة والتطبيع:

«فى الجمعية الأهلية لرفض التطبيع مع العدو الصهيونى، فجّر الفنان التشكيلى، الصحفى، والقاصّ، الروائى، الشاعر، المترجم، الناقد، نبيه الشاطر مفاجأة فى موضوع أسامة الليثى؛ إذ أعلن أن لديه وثيقة تثبت محاولة العدو الصهيونى إجراء اتصالات مع المواطن المذكور لإقناعه بقبول تمويل لمشروع الأرانب، وصرّح الشاطر أن كل ذلك يأتى فى سياق محاولات العدو التى لا تنقطع، لاختراق المجتمع المصرى بعد تنفيذ اتفاقية كامب ديفيد الشهيرة، وفرض التطبيع معه، وهو ما أثبتت الأيام فشله حتى الآن».

■ **الجماعات تتحرك:**

«قالت فاتن الابنة الكبرى لأسامة رستم الليثى، إن الجماعات الدينية اتصلت بأبيها مؤخراً، وعرضت عليه إدارة محل لبيع الفراخ والبط والأرانب يعود ريعه لصالحه؛ شريطة انضمامه لهذه الجماعات، لكن أباها رفض الفكرة تماماً».

(نقلاً عن باب بورصة الأسرار بمجلة أسبوعية شهيرة)

□ **ندوة عشوائية فى وزارة الصحة:**

فى الساعة الواحدة إلا ربعاً من يوم الثلاثاء التالى للعثور على أسامة، قام موظفو قسم الإحصاء فى وزارة الصحة بعقد ندوة عشوائية لتضييع الوقت، وقتل الملل اليومى المعتاد، كان موضوعها: أسامة المسكين وما جرى له فى ظرف يومين. تمت الندوة ككل ندوات الموظفين فى وزارة الصحة والوزارات الحكومية الأخرى، بدون برمجة ولا تخطيط، ووفقاً لمنهج «كلام يجيب كلاماً»، وقد افتتحتها زميلة أسامة فى القسم، سيِّدة عبد العال، بينما كانت ترتِّب وضع الخيار والطماطم فوق الجبن الرومى برغيف الفينو تمهيداً لالتهامه كالعادة، فقالت: والنبى مرض الأستاذ أسامة قطع فى الواحد جداً، ربنا يشفيه ويعين أهله ويلطف بعياله. ووفقاً لترتيب المشاركين فى الكلام بالندوة، جاءت وجهات نظرهم كالآتى:

● عبد الحميد الساعى، وهو يُقلِّب الشاى الكشرى المخصوص لرئيس القسم:

ـ والله الأستاذ أسامة إنسان أمير جداً، لكن عقله ولا مؤاخذة خفيف بعض الشىء، دائماً كان يقول لى: «لما البيزنز يمشى معى،

إن شـاء الله، أعـيِّنك عندى يا عـبـد الحـمـيـد، وأريِّحك جـداً، وأبسطها معك فى المرتب». وبصـراحة أنا عمـرى ما شفـتـه عمل بيـزنز، لذلك كنت أسايره وأجاريه وأقول له: ربنا يخليك لعيالك يا أستاذ أسامة... مسكين والله.

● رئيس القـــسم ، وهو يطلب رقـمـاً بالهـاتف دون أن يرفع بصـره عن الأوراق التى أمامه:

ـ مـشكلة أسـامـة أنه من أصـول كـبـيـرة، وكل النـاس أولاد الذوات حـصل لهم خلل بعـد تغـيُّـر الدنيـا لمّا الزمن جـار عليـهم. أنا كنت الاحظ أنه طالع فـيـهـا بعض الشـىء، وعـنده جنون عـظمـة وغـيـر واقعى على الإطلاق ولا يفهم الدنيا ماشية بأية طريقة.

● شـاعـر العـامـيـة ، وهو يحل الكلمـات المتقـاطعـة فى ثالث جـريدة خلال اليوم:

ـ طبـعـاً لابد أن تحـصـل للرجل لوثة، وعـقله يخفّ؛ لأنه إنســان مـرهـف، عـاجـز عن التكيُّف مع الناس، أى كـائـن عـاقل لازم أن يجرى لمخّه شىء؛ بسبب عيشتنا الزفت، الرجل حـاول فى مشـروع واثنين وثلاثة، عـافَرَ مع الظروف، ثم فشل فى النهـاية، فـلابد أن يصـاب بصـدمـة؛ لأنه لا يقـدر على السـرقـة واللصـوصـيـة ولا على الفـهلوة والبلطجـة ولعـب "الثـلاث ورقـات" كـمـا بعض النـاس فى أيامنا المنيلة إياها. الأسـلاك ضـربت والكمـبيوتر فى دمـاغـه تعطل، شىء طبيعى جداً أنه انهار.

قـال ذلك وهو يتطلع فـى وجـه رئيس القـــسم الانتــهـــازى، الذى يكرهه لأنه يجيد التملق للمدير، وإلى عبد الحـميد السـاعـى، الذى كان يفـرض إتاوات على الجـمـهور لإنهـاء مـصـالحـه وكـانت تتـراوح

بين الجنيه والخمسة جنيهات بعد أن يقول: «كل سنة وأنت طيب يا أستاذ». وقد اشترك المدير العام فى الندوة بالصدفة؛ إذ دخل على مرؤوسيه أثناء الحوار ليبلغهم بالتعليمات الأمنية الجديدة التى تلقاها منذ فترة وجيزة، وتنص على ضرورة الخضوع لتفتيش الحقائب الشخصية فى مكتب الأمن عند المجىء إلى العمل صباحاً، وعدم السماح للجمهور بترك أية متعلقات على المكاتب أثناء إنجاز مصالحه فى الوزارة، فجاء رأيه كما يلى:

- أسامة طيّب ومسكين، وإن كان ينجز عمله فى بطء، وواضح أن ظروفه العائلية صعبة وصحته على قدّه، أما موضوع الأرانب فأنا عرفته بالصدفة، ربنا ألهمنى أن أسأل عبد الحميد لما شفته ومعه الكيس الكاكى، ولما كلمت أسامة، أنكر حكاية مشروع الأرانب، فجاريته ولم أحرجه وأقول له إنى فاهم إن المشروع مشروعه، وقلت أشترى منه أرنبين وأنفّعه، ثم إن المرض النفسى مسألة من المحتمل أن تكون كامنة عند الإنسان من الطفولة وتظهر فجأة فى الكبر. لكن بصراحة يا جماعة، أنا كنت لاحظ أن إيمانه ضعيف، وعمره ما ركع فى جامع المصلحة، ولا ترك الشغل من يده لما يسمع: الله أكبر، الإيمان يا أولاد... الإيمان يعصم الإنسان من التعب والمرض؛ لأن الإنسان لمّا يعرف ربّه يرتاح وروحه تطمئن.

عقّب الجميع بهمهمة وتمتمة، وهزّوا الرؤوس إيجاباً، ما عدا شاعر العامية الذى تنهّد وزفر دون أن يرفع رأسه عن الجريدة، وإن كان نحاها بعد قليل؛ حتى لا يُتهم بعدم احترام المدير، ثم إنه انتهز لحظة خاطفة، وفى غفلة من الجميع المنشغلين بالمدير، رسم

بشفتيه تعبيراً استنكارياً هازئاً (ضمَّهما سوياً وحركهما بسرعة يميناً ويساراً عدة مرات). وكان الشاعر قد صرح أكثر من مرة لأسامة قبل مرضه أن المدير هو ثور الله فى برسيمه، ويعيش بعقلية القرون الوسطى.

□ ندوة الجيران فى بيت أم فتحية:

وهى ندوة جرت بمحض الصدفة، وقت أن جاءت صاحبة العمارة إلى شقّة أم فتحيّة لتحصيل فلوس ماسورة المجارى، وطلبت من فتحيّة لَمّ الفلوس من بقية سكان الشقق؛ لأن رجلها اليمين وارمة وعمَّالة تنقح عليها بسبب أكلة الفسيخ التى التهمتها فى الظهر، فلما ذهبت فتحيّة إلى الجيران، جاء بعضهم لمناقشة صاحبة العمارة وجهاً لوجه فى قيمة المبلغ المطلوب للماسورة؛ فى محاولة منهم لتخفيضه، لكن صاحبة العمارة واجهتهم بدورها، وأفحمتهم تماماً عندما أبرزت فاتورة ثمن الماسورة، ثم أعلنت أمام الجميع، تنازلها عن حصّة شقّة أسامة من الفلوس؛ نظراً إلى الظروف الأخيرة التى ألَمَّت بصاحب الشقة، وهنا افتتحت الندوة فقالت:

- والنبى صعبت علىّ حياة، المسكينة أصبحت تلقّ فى الجلابية من قلّة الأكل، الدنيا غدرت بها، على رغم أنها شقيانة وعمَّالة تجتهد لأجل بيتها وعيالها. آخر مرة شفتها، عرضت علىّ طاقية من جلد الأرانب، واشتريتها من باب التنفيع.

● أما نظرية صاحبة العمارة فكانت:

- يظهر أن الرجل معمول له عمل. قبل شهرين كان قط أسود غطيس على دوّاسة باب شقّتهم، شفته فتعوذت بالله من الشيطان وناديته: بس بس بس بس؛ لأجل أن يفزّ ويقوم، لكن ابن الذينَ

بصّ لى بلؤم وكوّر جسمه ولبد فى مطرحه ولم يتحلحل من مكانه أبداً، فقلت لروحى: بخاطره اتركيه يا بنت على كيفه. وبعدها مشيت خطوتين فى طرقة السلم، فشعرت بشىء غريب تحت رجلى، ميلت لأشوفه، فوجدته لَفّة صغيرة من جلد أرنب أسود فى أبيض فتحتها بسرعة، فشفت ورقة مرسومة بالطلسمات والعكوسات وبأشكال حيوانات غريبة وأرانب فرُحت طالعة شقتى بسرعة وحرقت العمل، وحملت كيس ملح رشيدى خشن، ونزلت أرشّ السلَم من أوله إلى آخره، سلمة سلمة، ولما حضر الشيخ سعيد المقرئ ساعة العصر طلبت منه أن يقول سورة «قل أعوذ بربّ الفلق» وحكيت له الحكاية، فنصحنى أن أطلق البخور كل جمعة فى مدخل العمارة.

● تعقيب وإفتاء فتحية:

- فعلاً يا طنط. أنا يومها كنت خارجة الصبح للكلية، وشعرت بقرش الملح تحت رجلى، وقلت يمكن إن الملح وقع على الأرض من واحد طالع على السلم وأخذته الناس فى الرجلين، وهى طالعة ونازلة، لكن بصراحة عم أسامة معذور، وأعصابه لابد يجرى لها منتهى التعب؛ لأن "فاتن" و"سامية" فى غاية التكبُّر، خصوصاً سامية متطلباتها بلا حصر، ومناخيرها فى السماء، وطموحها فوق مقدرة أهلها.

● أرملة البواب أم حسن فى خطاب صغير مفتوح لجميع الحاضرين:

يعنى كل الجراير تمت من تحت راس العِرسة، لو إن الأرانب ما كان جرى لها ما جرى، ما وقع الأستاذ أسامة وقعة المرض

الصعبة يا جماعة. وبصراحة الحكومة تاركة العِرَس تسرح فى كل ناحية من البلد، ولا جنس مخلوق قادر أن يقول لها بس. طيّب لو كانت الحكومة تلمّ العِرَس والكلاب السارحة فى الشوارع والنازلة أذى فى الناس، كانت الحكاية ما حصلت من الأصل. البلد فوضى، والكلاب عمَّالة ترمح وتعضّ فى الخلق. ابن عباس الساعاتى عضّه كلب من يومين قدّام دكانه واضطر أن يروح المستشفى ويحقنوه بحقن الكلب. والله الفوضى والعرس هما السبب فى كل المتاعب.

□ **ندوة أصحاب الشأن:**

وهى الندوة التى تخللتها دموع وحسرات، وتنهدات وزفرات ومرارات وإحباطات وتشاؤم، ثم أمل ورجاء، وقد جرت قبل خروج أسامة من المستشفى بيوم واحد.

- والنبى يا ماما كفاية حزن. امسكى نفسك، كلنا يلزمنا التعاون والتماسك، والدموع لا يمكن أن تعود علينا بأية نتيجة. لكن بصراحة يا ماما، أنتِ يلزمك الحزم مع بابا، لازم تبطلى تسايريه وتوافقيه على الكلام الفارغ والمشروعات العبيطة إيَّاها، وكل شىء وقع بكرة ينصلح إن شاء الله.

(سامية لأمها).

- كفاية فلسفة ونظريات ومواعظ يا سامية، ماما معذورة بلا شك وحالة بابا تصعب على الكافر، لأنه قبل كل شىء إنسان طيب وحسَّاس، وحرام أن يجرى له ما جرى، وأنتِ مسئولة يا سامية عن مرضه بشكل من الأشكال؛ لأنك صاحبة مشاكل، وتعليقاتك نازلة طالعة على كل كبيرة وصغيرة، وماسكة له هو وماما على الواحدة،

لدرجة إنه شعر وكأنه فى حالة حرب، والبيت كله خناقات عمّال على بطّال. أرجوكِ يا سامية لما يرجع بابا من المستشفى حاولى إن تكونى لطيفة وأن تتكلمى معه بهدوء وبدون انفعال وتوتر، وكفانا مجادلة فى كل كبيرة وصغيرة.

(فاتن لأختها).

- مستعدة.. أبيع هدومى... إنشا الله يا رب نقضيها بدُقّة أو عيش وملح، ويرجع أسامة لطبيعته... مستعّدة.. أفرش له رموشى ليمشى عليها، مستعدّة... أعمل له خدّى كما المداس، وهو يعود لصحته وعقله ووعيه. يا رب إنت عالم بحالى.

(حياة).

- أهمّ شىء يا جماعة هو تهيئة الجو المناسب له؛ لأن العلاج بجلّسات الكهرباء مُتعب جداً، ومن المحتمل أن ينسى بعض الأشياء. مسألة عادية تماماً. الجو الأسرى السعيد أهم شىء بالنسبة لحالته، المرح والابتسام والبعد عن النكد والمشاكل مسألة شديدة الأهمية، خصوصاً منك يا سامية، وربنا الشافى.

(ابن عم اسامة، وهو يستعد للذهاب لأن الليل ليّل).

٤

بعد ستة شهور من عودة أسامة إلى البيت، بدأت الأمور تسير سيرها المعتاد، فقد استعاد توازنه النفسى شيئاً فشيئاً؛ بفضل الحقن المهدئة والمنومة والمؤثرة على التركيب الفسيولوجى لسوائل المخ. ثم إنه عاد يزاول عمله فى دفتر المواليد بالوزارة، والجديد هنا أنه صار يواظب على صلاة الظهر مع مديره العام فى الجامع العشوائى الذى يحتل وقت الصلاة مدخل الدور الأول فى الوزارة؛ حيث تفرش الحصر على الأرض، ويتعطل المرور فى هذه المنطقة من المبنى حوالى نصف ساعة يومياً يقضيها الجمهور فى حالة انتظار ريثما ينتهى الموظفون من أداء واجبهم الدينى.

ومن التطورات الأخرى التى طرأت على أسامة، أنه كفّ عن الحلم بالأثداء الكبيرة عابرة الطريق، وصار يغضّ الطرف عنها مع سبق الإصرار كلما برز بعضها أمام نظره بالصدفة، أما على المستوى الشكلى فقد أطلق لحيته، وبالتالى باتت كولونيا الليمون "الثلاث خمسات" لا تستخدم إلا فى الأغراض الطبية، وخصوصاً فى تطهير موضع الحقنة الشهرية من جلد إليته، أمّا حياة فقد تحجبت وصارت تغطى شعرها بمنديل كبير، يسقط على كتفيها وصدرها ليقارب

ركبتيها، على عكس فاتن التى جاء حجابها بسيطاً يتلخص فى منديل متوسط من الشيفون الملوَّن الزاهى، تعقده خلف رقبتها بعد لفّه عليها من الأمام، ليبرز الشيء الوحيد الملفت وهو شعرها الكستنائى الغزير.

ولا حاجة بنا فى هذا المقام أن نؤكد رفض سامية للحجاب، وهو الرفض الذى يعتبر طبيعياً بالنسبة إلى شخصيتها على رغم إلحاح أمها وفاتن عليها؛ لتغطى شعرها بأى شكل من الأشكال، حتى لو كان طاقية كيروشيه بسيطة تصل حتى الأذنين فقط.

خلال هذه الفترة، جرت بعض الأحداث المهمة للأسرة، فقد رسبت فاتن للمرة الثالثة فى الكيمياء الحيوية؛ فقررت ترك الجامعة نهائياً والاشتغال كمدرِّسة حضانة فى مدرسة لغات قريبة من البيت، بمرتب متواضع جداً، لم يعوِّضه إلا الهدايا شبه الإجبارية التى يقدمها الأطفال للمدرِّسات فى الأعياد المختلفة، بدءاً من عيد الأم، وحتى عيد القمح الذى جرى اختراعه أخيراً. وقد أصبحت حياة فى ورطة حقيقية؛ إذ عرضت عليها صاحبة قديمة لها، تدير محلاً للتجميل وتصفيف الشعر، أن ترافقها لتعمل معها فى بلد نفطى؛ لقاء أجرٍ مُغرٍ للغاية وبشروط إقامة ميسَّرة على أن يكون ذلك فى محل تجميل متخصص على مستوى عال، وأن تكون مهمتها على وجه التحديد هى انتزاع الشعر من أجساد زبونات المحل، وعمل تدليك لهن بعد ذلك بالزيوت الطيَّارة والعطور والدهون. وقد أبلغت الكوافيرة حياة أنها ستقدمها لصاحبة العمل الخليجية كخبيرة فى هذا المجال بالطرق البلدية المعروفة. بدا الراتب المعروض على حياة جذاباً جداً ويستحق التفكير فى الأمر، لكنها كانت تخشى أن تترك

سـاميـة وأسـامـة في مـصـر. تخـاف أن تنتكس حـالة أسـامـة عندمـا يفـتـقـدهـا ،وأن يأكلها القلق على ابنتهـا المتهوِّرة الهوجاء. صـحيح أن سـامية أنهت عـلاقتهـا بالرجل المتزوج، لكنهـا لن تـعـدم بديلاً له خـلال فترة زمنية وجيزة بعد ذلك.

ومن الأحـداث السـارة التى جـرت للأسـرة خـلال تلك الأيام، أن حياة جاءت بمبيِّض فدهن الشقة، حيطان الشقة بالطلاء الزيتى، لون سن الفـيل، وقـد بدا هـذا القـرار فى عـينىّ سـامـيـة ثورياً جـداً؛ لأن الشـقـة لم تلامس جـدرانهـا فـرشـاة طلاء طيلة خـمـسـة عـشـر عـامـاً مضت.

كـمـا قـامت حـيـاة بخطوة مـباركـة أخـرى؛ إذ طلبت من المنجِّد أن يشـد كـراسى طقم الصـالون، بعـد أن اشـتـرت لهـا خـصـيـصـاً كـسـوةً جـديـدة من السـاتان المنقـوش، بدلاً من القـديمة التـى تهـرَّأت، وقـد اضطرت حياة إلـى هـذه التجـديدات بعدمـا اكـتـشـفت أن عـلاج أسـامـة التهم الشطر الأعظم من متحصل بيع الأسـاور الذهبيـة، ورفعت شـعـار ضـرورة سـتـر البيت، وجـعل مظهـره لائقـاً، فـمن المحـتمـل أن يرد بعض الخُطَّاب لطلب الزواج من فـاتن، وهـو مـا لـم يحـدث ولن يحـدث إلا بعـد سـت سنوات تاليـة لزمن رفع الشـعـار؛ وربمـا بسـبب نحـول فـاتن الشـديد وتضخم أنفهـا، بالإضـافة إلـى صدرها الممسوح الشبيه بصدر والدتها.

ذات مـسـاء سـعـيـد، وبعـدمـا وزعت حـيـاة قطع البـسـبـوسـة على أسـرتهـا الصـغـيـرة، بينمـا كـان الجـمـيع يتابعـون مـسلسل السـابعـة والربع فى التلفزيون، قال لها أسامة وهو يزدرد ما نابه بتلذذ:

ـ عندى فكرة ظريفة نُزيد بهـا دخلنا، نعـمل حلويات ونوزعـهـا على

البيوت، ونجعل أسعارها أرخص من أسعار الحلويات فى المحلات بالسوق.

توقفت حياة قليلاً عن تناول ما بيدها، نظرت إليه بشفقة، وكادت أن تقول له: كفانا مشروعات وأفكاراً فاشلة يا زوجى العزيز، لكنها تذكرت مرضه النفسى ونصائح الطبيب لها: «لا تناقشيه، لا تجادليه، تعاملى معه بحزم»، فنظرت إليه بحنان وردَّت:

- والله فكرة يا أسامة.

استطرد قائلاً بحماس:

- نطلب نشر إعلان صغير فى إعلانات جريدة الأهرام المبوَّبة، سطر واحد مكتوب فيه «جميع أصناف الحلويات من البيت للبيت بأسعار مغرية»، مع رقم التليفون.

رنَّ الهاتف، رفع أسامة السماعة، فجاءه من الطرف الآخر صوت يقول:

- مساء الخير يا أستاذ أسامة، أعرِّفك بنفسى، أنا صاحب مشروع لعمل المخلّلات فى البيت، أخذت رقم تليفونك من الدليل العام، وأنا مستعد لتوصيل أية طلبات من المخللات إلى حضرتك فى البيت، علماً بأن عندنا أصنافاً ممتازة من مخللات الزيتون والليمون والخيار والجزر والبصل واللفت وحتى الفاصوليا. ممكن إن النوع الأخير جديد بالنسبة إليك؛ لأنه غير معروف فى مصر، لكن حاول أن تجرِّبه مرة ومستحيل إنك تنساه بعدها، وحسب الطلب، نعمل لك الخزين السنوى، لكن باتفاق سابق طبعاً. أسعار ممتازة، والتخليل يتم بأساليب علمية؛ لأنى مهندس زراعى ورقم تليفونى هو...

بدت الفكرة رائعة فى نظر أسامة، لا فكرة المخللات، ولكن فكرة

استخدام الهاتف كوسيلة للإعلان عن مشروع الحلويات المقبل، وهكذا ظل أسامة طوال ستة شهور، بعد الشهور الستة التى أعقبت خروجه من المستشفى، يكرِّس وقته المسائى اعتباراً من الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة ليلاً للاتصال بعملائه المتوقعين مُعلِناً عن مشروع الحلويات، وقد أسفرت اتصالاته خلال تلك الأشهر عما يلى:

- تعرض لشتائم عديدة متنوعة لم تخل من بذاءات ووقاحات. فلقد ظن البعض أنه رجل تافه يرغب فى تضييع الوقت والتسلى بمضايقة الناس وإزعاجهم عمّالاً على بطال.
- تعرَّف على ناس كثيرين يعملون فى مهن مختلفة، بعضها ذات مستوى رفيع، أبدى بعضهم استعدادهم لتشغيله فى وظائف عندهم.
- بعد مكالمة قصيرة مع صاحب رقم عشوائى أبدى الرجل رغبته فى مقابلته شخصياً فى صباح اليوم التالى بكازينو النهر، على أن يرتدى قميصاً سماوياً وربطة عنق سوداء، ثم إنه تعرَّف منه على أوصافه، وعندما ذهب أسامة، إلى الموعد المحدد، قابله ذلك الشخص بترحاب شديد، ودعاه إلى شرب البيرة، وفوجئ به يستجوبه على نحو دقيق بخصوص تاريخه الشخصى وحياته الأسرية، وعلاقاته الاجتماعية، ثم سأله عن جيرانه وابنتيه وصديقاتهما فى البيت والجامعة، وعندما بدأ يشعر بقلق أسامة، وتوتره، أعلن له بصراحة عن الهدف من المقابلة، فقال له إنه سيعيِّنه كمحاسب فى واحد من سلسلة محلاته الشهيرة بالمدينة؛ مقابل راتب معقول، لكن عمله الحقيقى والذى سيقوم به فعلاً هو استلام حقيبة كل أسبوع من مكان محدّد وتسليمها فى مكان آخر بهدوء ودون أن

يلحظه أحد؛ شريطة ألا يسأل أبداً عن محتواها أولاً، وألا يخبر أى كائن كان عمّا يقوم به ثانياً، وأما ثالثاً، فعليه اعتبار عمله هذا التزاماً أبدياً، لا يحله منه إلا الموت.

كان الرجل يتحدث بصوت أجشّ واثق، ولهجة تهديدية لم تخلُ من جبروت وعنف؛ مما جعل أسامة يرتعب، ويصبّ لنفسه دون أن يشعر كأساً من البيرة (كان قد رفض شرب البيرة فى بداية اللقاء نظراً إلى مواقفه الأخيرة). فى النهاية أبلغه الرجل دون أن ينتظر منه رداً أو استفساراً وهو يقوم فجأة استعداداً للذهاب، أنه فى حالة الموافقة على العمل المقترح والذى سينال منه خمسة آلاف جنيه؛ نظير كل نقلة للحقيبة، بالإضافة إلى المرتب، فإن عليه الاتصال برقم هاتف خاص غير مدّون فى الدليل العام للهواتف أعطاه إيَّاه. أما فى حالة رفضه فما عليه إلا أن يمزق الرقم وأن ينسى الموضوع نهائياً، بل أن ينسى أنه قابله أصلاً، وإلا فإنه سيندم ندماً لن يفيده بعد ذلك، ثم إن الرجل دفع حساب البيرة ومضى دون أن يُكلِّف نفسه مدّ يده الضخمة ومصافحة أسامة. ظل أسامة بعد ذلك متسمّراً فى مكانه، يشعر وكأنه يحلم، كان قد أصابته درجة من السُكّر الخفيف بعد أن عبَّ عبَّاتٍ سريعة من كأسه، لكنها لم تمنع استيعابه لكل كلمة قالها الرجل ووعيه لما قاله فطلب من النادل أن يأتيه بفنجان من القهوة المُرَّة الثقيلة حتى يتنبَّه تماماً، وعندما عاد النادل كانت الهواجس والظنون والوساوس قد التهمته تماماً. فالمسألة واضحة كعين الشمس، الرجل يتاجر فى المخدرات عينى عينك، على رغم ثرائه الفاحش وامتلاكه سلسلة من المحلات لم يبح لأسامة باسمها. فكَّر: لماذا اختارك أنت بالذات يا أسامة؟! ترى أى نوع من

المخدرات، الهيروين، أم الأفيون أم الحشيش؟!. قم فكّر فى المبلغ الساحر الذى عرضه عليك الرجل نظير النقل. شىء لا يُصدّق يمكن أن يُحدث فى حياته نقلةً انقلابية خطيرة لا يمكن أن تحلم بها سامية أو فاتن أو حياة، لكن الرعب تملّكه فى النهاية من الانغراس فى عمل - مصيبة من هذا النوع، وفكر فى الخروج فوراً من الكازينو وإبلاغ البوليس، لكنه اكتشف أنه يخاف من البوليس أيضاً، ويخاف الاقتراب من مبانيه، مثلما يخاف الرجل الأنيق جداً ذا المظهر الراقى الوقور، الذى كان يجلس قبالته منذ قليل. وفى الطريق إلى البيت، وهو يسير مجرجراً رجليه بعد أن سابت مفاصله، مزّق رقم التليفون السرّى وطوّحه فى الهواء، وشعر بحسرة وإحباط يحطمان روحه ويهدّان كيانه.

● أصبح يحفظ عن ظهر قلب جميع الأرقام الأولى لهواتف مناطق القاهرة الكبرى كلها.

● تعرّض لمدّة شهرين متواصلين، لمراقبة تليفونية من مباحث الآداب، التى ظنت أن إعلانه عن البسبوسة، وأم على ولقمة القاضى، والشكلمة، ما هو إلا شفرة خاصة لتوريد نساء الرذيلة.

● أصيب بضعف فى السمع بأذنه اليمنى؛ لاستعماله الهاتف لفترات طويلة.

● زادت مشاجراته مع حياة التى فقدت أعصابها، ولم تعد تحتمل قضاءه الأمسيات فى استخدام الهاتف، خصوصاً وقت عرض مسلسل السابعة والربع فى التلفزيون.

● تعرَّض لتوتر عصبى على فترات متقطّعة بسبب جدل بعض من تكلم معهم؛ فمنهم من قال إن الأسعار التى يطرحها مرتفعة، أو

أنهم لا يضمنون نظافة وسلامة الخامات التى يستخدمها، ويفضلون الشراء من محلات الحلويات المعروفة التى تخضع لإشراف وزارة الصحة.

● عند اتصاله بأحد الأرقام أخبره المتحدث على الطرف الآخر من الخط، أنه قام بالمشروع ذاته، لكنه فشل فشلاً ذريعاً.

● مرة، اتصل أسامة برقم من الدليل وكان لسيدة أعلنت بصوت ناعم رقيق تحمُّسها الشديد للمشروع، وطلبت منه صينية بسبوسة بالقشدة، أوصلها أسامة لها فى مساء اليوم التالى، لكن الطلبات المتكررة للمرأة، والتى لم تنقطع أسبوعاً واحداً أصابت حياة بالقلق، وجعلتها تشعر أن هناك أمراً ما وراء البسبوسة فوضعت الحالة تحت المراقبة؛ لتكتشف ذات مساء، وأثناء تنصتها على محادثة هاتفية بين العميلة وزوجها، أن العلاقة بينهما آخر حلاوة، فبدأت تفسر أسباب هجر أسامة لها فى الفراش، وعدم تعليقه على منديل الشيفون الأحمر الجديد الذى اشترته مؤخراً، وتوقفه عن مناداتها بياروحى، كما كان يحدث بين وقت وآخر، خصوصاً عند طلبه شيئاً منها. وبمواجهته، اعترف أسامة وأقرَّ بأن المرأة أرملة ولا تعول؛ لأنها عاقر، وأنه أمضى معها بعضاً من الوقت أكثر من مرة فى شقتها بشبرا، عندما كان يأخذ لها الحلويات، ثم فجّر أسامة قنبلة التحقيق الذى تمّ ليلاً فى حجرة النوم، بعد نوم البنتين؛ إذ أقسم لحياة أنه لم يلمس من المرأة أكثر من كفّها عندما كان يصافحها، لكنه تعشّى عندها أكثر من مرة، ورفض العشاء آخر ليلة ذهب إليها فيها؛ لأنه كان ملوخية بالأرانب، كما أقر لحياة بأن المرأة كاشفته برغبتها فى الزواج منه، وهى ميسورة، وشقتها واسعة ولديها أرض تزرعها

بالبرسيم، ثم أنهى كلامه وهو يمرر كفّه على فخذ زوجته العارى فى حنان ويسألها:

- ما رأيك يا حياتى؟. الوليّة وحيدة وميسورة ومحتاجة الستر، وأنتِ عارفة إنى فى عمرى ما فكّرت فى أية مخلوقة إلا أنتِ، فكرى فى مصلحة البنتين، ومصلحتنا، الأرض ممتازة ومن المحتمل أن نقوم بمشروع عليها فيما بعد، واعتبرى المسألة كلها مسألة مصلحة ومنفعة متبادلة مع الولية. كبّرى عقلك يا حياة.

لأول مرة وطوال فترة زيجتها الممتدة، أعلنت حياة رفضها القاطع والنهائى لمشروع زوجها الجديد، لم تكن فى حاجة لمعارضة سامية، كما أن توسلات زوجها ومحاولاته لإقناعها لم تفلح هذه المرة وقد ختمت الموضوع بتهديد أسامة بالطلاق دون رجعة، بل أنه لن يعرف لها سكّة بالفعل إذا ما حاول التفكير بهذه المرأة، وأعلنت إنهاء مشروع الحلويات جلاب المصائب الذى لم يَنُبْها منه كما قالت غير توسيخ المواعين، ولمّ النمل البلدى الصغير، والفارسى الكبير، والصراصير الرفيعة والصراصير أم شوارب طويلة فى دواليب المطبخ؛ مما اضطرّها إلى دبٍّ مشوار إلى قريب لها فى وزارة الزراعة؛ ليعطيها بعضاً من مبيد التوكسافين الفعَّال المستخدم فى القضاء على دودة القطن لترش المطبخ كله؛ حتى تتمكن من قطع دابر كل أنواع هذه الحشرات منه. ثم إنها أنهت تهديداتها لرجلها قائلة: «قَسَماً عَظَماً، لأكون تاركة لك البيت والعيال والدنيا والدين حتى آخر يوم من عمرى يا أسامة؛ إذا ما بطلّت حكاية الحلويات وقرفها».

ظلت حياة لفترة أخرى تعيش حالة من القلق وعدم الاطمئنان،

على رغم ارعواء أسامة، وامتثاله لتهديداتها، وكفّه عن مكالمة وليّة شبرا، وإجهازها على مشروع الحلويات سيئ السمعة تماماً، حتى كان اليوم الذى جلب فيه ساعى البريد خطاب هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية المحتوى على فاتورة التليفون الباهظة، التى دفعت بحياة وأسامة إلى اتجاه مغاير تماماً.

فأسامة لم يتمكن من سداد الفاتورة عن فترة مكالماته الحلوانية بعد أن فاقت كل تصور محتمل بالنسبة إليه ولإمكانياته وجعلته يضيف اسم هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية إلى القائمة السوداء المتضمنة أسماء أعدائه جميعاً، ابتداء من الأمم المتحدة وشركائها فى التلفزيون، وانتهاءً بمديره العام فى وزارة الصحة (لم يجرؤ أسامة على إضافة اسم أمه صراحةً إلى هذه القائمة لاعتبارات دينية أوّلية توصى بحب الأم وطاعتها)، واعتبر أسامة أن هذه الهيئة هى واحدة من الأطراف الفعّالة فى المؤامرة الكبرى التى مازالت تحاك حوله منذ فشل مشروع الأرانب، والتى تستهدف أمنه وسلامته وآماله العريضة فى النمو والنهوض.

مُرتّب فاتن المحدود لم يسهم فى نقلة حياتية ذات قيمة بالنسبة إلى الأسرة؛ إذ كان يُنفق فى الأغلب على ملابسها ومصاريفها الشخصية بما فى ذلك مصاريف مناديل رأسها الملونة التى تعددت لتناسب ألوان ملابسها، وكذلك مصاريف مساحيق الوجه التى باتت تضعها على نحو مهرجانى فى محاولات مستميتة فاشلة لجذب الخُطّاب، وكتعويض عن أجمل ما تمتلك وقد ضاع منها تحت الحجاب.

صاحبة محل الكوافير، طالبت خياة بقرارٍ سريع قاطع فيما

يتعلق بسفرها والاشتغال معها فى الخليج؛ حتى تدبِّر الأمر فى حالة عدم سفرها وتتعاقد مع واحدة أخرى، وقد أمهلتها بداية الشهر التالى للشهر الذى أبلغتها فيه بالقرار.

ذات صباح وقبل نهاية الشهر بأيام، كانت حياة تعدّ الشاى لأسامة قبل خروجه إلى العمل؛ تأملت موقد الغاز ذا الشعلتين، والثلاجة القديمة التى بدأ يأكلها الصدأ، ودواليب المطبخ المتهالكة، ثم دارت بعينيها على ملاعق الطبخ الكبيرة المعلّقة وأوعية الألمونيوم المهبّبة القعور، شعرت وكأنها جميعاً تخرج ألسنتها لها وتغيظها عن عمد، فقالت لزوجها وهى تصب الشاى، وقد طافت بخيالها صور إعلانات التلفزيون عن المطابخ الجميلة الحديثة الجذابة:

- اسمع يا أسامة، بصراحة الحياة صارت صعبة، والعمر سارح ونفسى أن نطلع للدنيا كما الناس بحق وحقيق. بصراحة أنا فكرت، وقلبتها من هنا مرة، ومن هناك مرة، ودورتها على كل ناحية، فوجدت أن الحل المناسب هو السفر مع سعاد الكوافيرة؛ حتى تتيسر أمورنا ونشم أنفاسنا بعض الشىء. كلها سنة وارجع إن شاء الله، ويا عالم، ربما يكون سفرى فاتحة خير لنا جميعاً وبداية الفرج للعيال.

شعر أسامة أن قلبه يكاد يقع منه؛ فهو على رغم كل شىء، لا يتصور البيت لحظة واحدة بدون حياة؛ فهى عماده الأساسى، شمعة الحياة فيه، السعادة المحسوسة غير المنظورة بالطبع. رشف رشفةً من كوب الشاى، فشعر بمرارة طعمه، طلب من حياة أن تضيف إليه مزيداً من السكر، وهو يحاول ضبط مشاعره؛ لئلا يبدو منفعلاً أمامها. كان يدرك تماماً أن قرارها هذا ما هو إلا تحصيل حاصل لما هم فيه، وأنه لم يعد لهذه الأسرة من بديل، غير ذلك الاقتراح الذى

اقترحته حياة لتوِّها، هكذا كان يفكر منذ فترة، ومازال يفكر فى ذلك، على رغم كل المعاناة، ومشاعر الفقد، والوحشة، التى سوف يسقط فريسةً لها عندما تغيب عن البيت، لكنه لم يجرؤ على مفاتحتها فى الأمر أبداً؛ فقد كان متحرِّجاً من مصارحته لها برغبته فى أن تسافر، بعد كل المتاعب التى سببها لها، وبعد مشروعاته الفاشلة، ومرضه المزعج بكل ما فيه من ملابسات، كما أنه لم يتقبل نفسياً أن تكون حياة، وهى امرأة أولاً وأخيراً، مصدراً لحياة الأسرة، ثم إنه كان يخشى أن تظن به الظنون لو صارحها برغبته فى سفرها؛ بسبب حكاية غرامه الأخيرة، أو أن تعتقد أنه يرغب فى إبعادها والتخلص منها؛ حتى يخلو إليه الجو فيبيض ويصفر كما يشاء.

آثر أن يكون لطيفاً، لبقاً، مجاملاً لها فقال:

- مستحيل يا حياة أن تفكرى فى مسألة السفر، البيت بدونك يختل وأحوالنا تتلخبط. يا خبر يا حياة!. فكرى فى فاتن وسامية، كلنا فى أشد الاحتياج إليكِ، ومستحيل أن تسافرى وتتركينا. اصبرى يا حياة الله يخلّيكِ.

كانت حياة تدرك من نبرات صوته، وهى التى عرفته وعركته لسنوات طوال، أنه يكذب ويجاملها؛ فعاودت طلبها منه ليوافق على سفرها، مشتركةً بذلك فى المسرحية التى بدأها لتوِّه، والتى تعرف أنها ستنتهى النهاية السعيدة المنشودة فقالت:

- والنبى حاول التفكير بجد فى الموضوع يا أسامة، وحكِّم عقلك، يعنى ها أسافر وأشتغل وأجيب الفلوس، أم أحط يدى على خدى، ونقول للناس: هاتوا؟. يعنى هل أنت مستريح بعد قطع الحرارة عن

التليفون؟. وهل أنت مبسوط من أحوالنا، وبلاط البيت القديم المتكسر، عمال يطقطق كل ما مشت فوقه رجل؟. والله أنا لو سافرت، فالسفر على فص عينى، لكن العمل عمل ربنا، وعصفور فى اليد يا سيدى، خير من ألف على الشجرة، ثم إنها ألقت إليه بالخبر القنبلة فقالت:

- ثم هل تعرف أن العمارة صدر لها قرار إزالة من المحافظة، وصاحبتها ناوية تطلب من أصحاب الشقق التوقيع على القرار؛ حتى تكون خالية المسئولية لو إن العمارة وقعت لا سمح اللّه، يعنى المسألة أصبحت جد فى جد، والتفكير فى موضوع النقل من العمارة لأى مكان أصبح ضرورياً؛ لأن المسألة واردة فى أى لحظة.

عاود أسامة رشف الشاى دون أن يرفع نظره عن الكوب، ثم انتظر قليلاً قبل أن يسألها:

- وهل شاورت سامية وفاتن فى مسألةِ السفر؟.

ردت حياة بسرعة وحماس:

- سامية موافقة ومتحمسة جداً، لكن فاتن سحّت دموعها، وحطّت من كل عين الشىء الفلانى قبل ما أكمل كلامى عن الموضوع إلى الآخِر معها. يا حبيبتى... دموعها قريبة جداً، أصلها عاطفية وحنونة، لكنى أظن إن علينا التفكير بجد؛ لأن الوليّة سعاد، فى انتظار رد منى قبل آخر الشهر.

بعد أيام قليلة من ذلك الصباح، تصورت حياة صوراً فورية ملونة، واستخرجت جواز سفر دون أيّة إجراءات بيروقراطية سخيفة؛ مما أثار دهشتها وهى المعتادة كمواطنة على الروتين المعقّد طوال حياتها عند التعامل مع أجهزة الحكومة، وقد علقت على ذلك لأسامة بقولها:

«كما لو كانوا متمنين ومشتهين إن الناس كلها تسافر وتغور، ولا ترجع البلد أبداً».

حان وقت الرحيل بعد ذلك بأسابيع ثلاثة، وفى الوقت المحدد، فتحت حياة الباب، وأسامة خلفها يحمل حقيبتها، بينما راحت فاتن تتأملها بعيون محمرَّة كعيون الأرانب بعد أن بكت كثيراً ولم تخل، أما سامية، فكانت تحثهم على عدم التلكؤ، وسرعة الحركة؛ حتى لا تفوت أمها الطائرة، ثم إن حياة خاطبت فاتن قائلة:

- والنبى يا فاتن، ومن نبَّى النبى، لأكون مجهزة لكِ العريس معى عند رجوعى البلد بمشيئة واخد أحد، ونظرت إلى سامية نظرة ذات معنى، فهمت منها الأخيرة أن أمها تعاود التشديد على وصيتها لها، والتى تتلخص فى مراقبة أبيها جيداً، ومنعه من الاتصال بأى شكل من الأشكال بوليّة شبرا، ووأد أية مشروعات جديدة قد تبرز فى رأسه قبل ميلادها، ثم مواساة فاتن المسكينة لأنها لن تكف عن البكاء.

نظرت إليهم وتنهدت بحرقة، ثم إنهم ذهبوا معها جميعاً إلى المطار.

الجمل

تحولت إشارة المرور إلى الأحمر فتوقفت السيارات الكبيرة والصغيرة، وانتظر الناس، بينما دبّ الطفل بقدميه وصاح وهو يشاهد جملاً يعبر الطريق:

ـ ماما.. الجمل.

ردت دون أن تحيد ببصرها عن إعلان لقرية سياحية جديدة، شغل حائط بناية ضخمة على ناصية الشارع:

ـ طيّب.

تابع بعينيه الكائن الضخم المهيب، برقبته الممتدة، وسنامه العالى، وهو يخطو بخطوات وئيدة، زفر برضا ثم أعلن:

ـ ماما.. عاوز الجمل.

ـ يا سلام؟!.

قالتها وعيناها على بيضاء الإعلان، ذات الشعر الأصفر، المستلقية على الرمال فى لباس بحر من قطعتين.

ثلّث مطلبه، وساق عليها النبى:

ـ والنبى يا حبيبتى عاوز الجمل.

كانت تمسكه بيد، وتحمل بيدها الأخرى حقيبته المدرسية وكيس

خضار، أما حقيبتها فقد علقتها على كتفها.

أعلنت مستنكرةً بعد أن ملّت انتظار نور العبور الأخضر:

ـ جمل.. معقول؟!

لم تغب عيناه عن الجمل حتى غاب، فشرع فى البكاء مؤكداً جديّة مطلبه وإصراره عليه.

ـ وماله الجمل؟!. هاتى الجمل وخلاص.

اكتشفت جديّة الموضوع، فابتسمت، وشرحت:

ـ الجمل كبير يا حبيبى. مستحيل نحطّه فى بيتنا. شقتنا صغيرة، والجمل يحتاج إلى مكان واسع.

دحض منطقها بسرعة:

ـ خلاص.. نروح نقعد فى بيت كبير ونشترى الجمل.

ـ ها ها ها... بيت كبير لأجل الجمل؟!. البيت الكبير تلزمه فلوس كثيرة، أنا فلوسى قليلة.

ـ طيّب خلّى فلوسك كثيرة.

ـ مستحيل يا حبيبى؛ لأن مرتّبى صغير، على قدّ الأكل والشرب.

عاود الدبيب على الأرض بقدميه وصرخ:

ـ لكن أنا عاوز الجمل، هاتى لى الجمل وخلاص.

الشمس قوية فوق رأسها، والرطوبة خانقة، أما البيت فما زال الطريق إليه ممتداً، وصبرها فاض فصرخت هى الأخرى:

ـ أنت أهبل؟!.. حمار؟!. قال عاوز الجمل قال!!.. اخرس خالص ومدّ، خلينا نروح البيت وأشوف الطبيخ قبل رجوع أختك من مدرستها.

انفتحت حنفية الدموع عن آخرها، ودعّمتها صرخاته، وهو لا

يتوقف عن ترديد مطلبه - الذى رآه عادلاً وبسيطاً - فى إصرار:

- عاوز الجمل يا ستى، يعنى ماله الجمل. نفسى تسمعى كلامى مرة وتجيبى لى طلبى... هئ.. هئ.. هئ.

أبرزت الجانب المظلم من الأمومة، وشمّرت عن أظافر وأنياب، وزعقت فيه.

- طيب اسكت ساكت، واقطع الخُنّس بسرعة، وإلا ضربتك لحد ما أعدمك العافية، يا حمار، يا غجرى.. والله لو سمعت حسّك لأضربك فى الشارع وقدام الناس كلها.

بدأ يرعوى تحت وطأة التهديد؛ فقد كان مُدركاً تماماً إمكانية تحوّله إلى تطبيق عملى، فخفض من حدة بكائه، لكنه لم ينهه بالكامل؛ عندئذ رقّت الأم قليلاً، وقررت اتباع الشق الثانى من سياسة المعزّ:

- اسكت يا بنى - الله يرضى عنك - لأنى مصدّعة وجسمى يوجعنى كله، يظهر أنى داخلة على دور إنفلونزا.. اسمع، تعال أجيب لك حاجة حلوة، عاوز بنبونى والا شيكولاتة؟.

كاد أن ينفلق غيظاً. إنها تستخف به. توقف عن المسير وصرخ بغضب:

- قلت لكِ: جمل، جمل، لا بنبونى ولا نيلة.

أوشكت أن تنفجر هى الأخرى، هل تتوقف وتضربه، أم تبتلع غيظها وتسكت؟. فضلت الحل الأخير، لكنه لم يكفّ عن البكاء والمطالبة فوقع الانفجار:

- اخرس، بلا كلام فارغ، إنت عبيط والا صغير؟!. عندك ستّ سنين وتقول عاوز الجمل؟!. انسخطت، والا انسخطت؟!. سخطة لما

تسخطك، هو الجمل لعبة والا حاجة بسيطة؟!. شيء يغيظ ويفلق والله.. يعنى ناوى تلعب بجمل؟!.. هه؟!.

فاجأته بسؤالها، فهو لم يكن لديه تصور محدد لما سيفعله بالجمل حتى هذه اللحظة، لكنه مازال يملك شعوراً قوياً جارفاً تجاه هذا الكائن العظيم الفريد، الذى توقفت له إشارات المرور والعربيات وجميع الناس حتى عَبرَ الطريق.

تذكّر السنام والرقبة والعين الجاحظة فتنهّد فى مرارة، وتأكّد من أحقّية مطلبه، فشتمها فى سره.

وجدته صامتاً يفكر، فاستأنفت هجومها المقنع:

- ثم إن الجمل سعره غال يا حبيبى؛ لازم تخلى عندك ذوق وتعقل وتسمع كلام ماما. حرام تتعب قلبى وتطلّع روحى وهى طالعة خلقة من الحر.. الله يهديك، امش.

حاول هو استخدام أسلوبها، فقال بهدوء:

- طيب يا ماما، لكن الجمل حاجة بسيطة خالص.

أجابته بسرعة مستجيبة لحوار العقل:

- طيب.. إنت عمرك شفت أى إنسان عنده جمل. أولاد عمك مثلاً، هل عندهم جمل؟.. الجيران، أى واحد منهم عنده فى بيته جمل؟. اعقل يا حبيبى الله يهديك.

دحض منطقها بسرعة:

- الجيران عندهم كلب، وأولاد عمى عندهم عجلة و..

لم تعد تحتمل النقاش فزعقت مغتاظة، حتى أن صوتها جذب انتباه عجوز كان يعبر بجانبها؛ فنظر إليها ملياً وهى تقول لابنها:

- اخرس. خلاص.. يلعن أبو شكلك وغلاستك.

وأكد لنفسه أن أمهات هذا الزمن مسكينات وعصبيات وروحهن في مناخرهن بسبب الحياة الصعبة، وقلة الغذاء، وأكل الفراخ البيضاء، واللحم المجمّد معدوم الخير، ثم إنه تصعب ونظر إلى الولد في شفقة وسار.

الولد لم ينتبه إلى التعاطف الخارجي الذي كان يسير إلى جانبه؛ إذ كان يسير محدِّقاً في الأرض، شاعراً بظلم فادح، من هذه المرأة المفترية، على رغم عدالة قضيته من جميع النواحي، مطلبه بسيط إنساني جداً: جمل، لا أكثر ولا أقل. هي تتحدث عن الناس. الناس ليس عندهم جمال، لكن عندهم أشياء أخرى كثيرة ليست عنده في البيت، فلماذا تقول الناس، وتقول أولاد عمه؟!.

قررت أن تشرب حاجة صاقعة تطفئ غيظها وشعورها بالحرارة، لذلك فإنها بمجرد أن وقع نظرها على زجاجات الصاقع، وقد تناثرت فوقها قطع الثلج في صندوق بأحد المحلات توقفت وسألت ابنها:

- تشرب حاجة صاقعة؟.

لم يرد، واستكمل البكاء والزنّ وهو ينظر إليها في حقد، فقالت له:

- انفلق. إن شا الله ما شربت.

جاء البائع مبتسماً ليفتح لها زجاجة ليمون، فلما وجد الولد يبكي أخذ يلاطفه ويخيره بين أنواع الحلويات التي لديه، والولد لا يستجيب فقالت الأم بعد أن سحبت من الزجاجة سحبة طويلة بشفتيها:

- قطيعة، قطعت خِلفة الصبيان، خلّى روحي في مناخيري، ونازل يقوّق؛ لأنه شاف الجمل في السكة، وعاوز أجيبه له!!. شيء يفلق.

ابتسم البائع مرة أخرى، وأخذ يربِّت على الولد، ووجه له الكلام:

- جمل؟. معك حق والله، طيب أنا أجيب لك الجمل يا عم، ولا يكون عندك أى فكر.

دخل الرجل الدكان، وعاد بعد قليل وفى يده جمل صغير، جمل من البلاستيك الأحمر الخفيف، وضعه بين يدى الولد الصغير.

قلّب الطفل الشىء البلاستيكى بيديه، تأمله، كان على هيئة جمل فعلاً قارنه بذلك العظيم، المهيب، الذى عبر أمام ناظريه الطريق، بدا حائراً متردداً دهشاً من غباء الرجل، كيف يسمى ذلك الشىء الذى بين يديه جملاً؟!. لكنه تردد مرة أخرى؛ إذ كان بين يديه شىء على أية حال، فسكت ولم يقل شيئاً.

كانت الأم قد انتهت من زجاجة الليمون، فلما وجدته هادئاً ساكتاً قالت:

- الله.. والله جميل جداً.. وأحمر وحلو.

رمقها الطفل بما يشبه الرّيبة والاحتقار، وواصل صمته.

- تعرف.. تقدر تحطه فوق التلفزيون، أو تخلّيه ينام جنبك على السرير فى الليل.

قالت ذلك فتصاعد شعوره بالمرارة والخديعة وخيبة الأمل فى هذه الكاذبة التى أمامه، لكن بما أن هذا الشىء البلاستيكى الأحمر كان فى يديه فعلاً فقد واصل سكوته، بينما نطق البائع بزهو المنتصر:

- العيال أقل شىء يرضيهم بسرعة، وأفضل طريقة معهم المحايلة.

أكدت الأم وهى تخرج الفلوس من كيسها:

ـ طلّع روحى طول السكة.. عـاوز الجـمل.. عـاوز الجـمل، كنت ناوية أرنّه علقـة، والله فى الشـارع من عـزم غـيظى، ومنعت نفـسى بالعافية.

نظر البائع إلى الولد فى رضا وحاول مناقشته:

ـ حصل خير، لكن يا أخى اطلب عجلة، طيارة، إنما جمل، ذوقك غريب جداً. الجمل كان أيام زمان، بكرة ينقرض ويختفى خالص.

ابتسـمت الأم بسعـادة مَن خرج من ورطة، وسـحبت الولد مغادرةً المحل، لكن ما إن ابتعدت قليلاً حتى أعلن لها بصوت هادئ واثق:

ـ ماما.. عاوز الجمل والنبى.

حيوانـــــات

امتلأ الجـو برائحة دخان الشواء الشهية، فامتلأ صدر الشوَّاء اعتزازاً، وزاد من حركة المروحة المصنوعة من ريش الإوز، المصبوغة بألوان زاهية، والتى كانت بيمناه، بينما امتدت أصابع يسراه لتلتقط قطعة من السفود وتدفع بها إلى فمه.

كانت الرائحة فاضحة، قوية، مغرية بما يكفى لأن تغامر القطتان فتقتربا كثيراً من موضع الشوَّاء حتى صارتا على بعد أشبار قليلة من أصابع قدميه المدمَّلَكَة الطَّالَّة من نعله المفتوح. ألقت القطتان نظرات سريعة مستريبة على حركة الأصابع المتململة لكثرة الوقوف، ولما اطمأنتا إلى أنه لا شىء يستحق القلق والخوف منها استرخى جسداهما، بينما راحت أبواق آذانهم الصغيرة تستجيب متحركة فى اتجاه صوت بوق سيارة مسرعة فى الطريق مرة، ولصراخ طفل مرة أخرى، ثم لنداء صاحب الشواء على العابرين ثالثة.

استقرت البيضاء المرقَّطة بالأصفر على قوائمها الأربع فى وضع الانتظار، أما الرمادية المقلَّمة بالرصاصى الداكن، ذات الفم الوردى المكتنز، فقد اتخذت وضع التطلُّع وقد اشرأبّت بعنقها الرفيع، وبدأت الاثنتان فى إرسال تنويعات على لحن واحد: مياو.. مياو.

كانت البيضاء ذات صوت ناعم حاد، قادر على بثٍّ مؤثر رقيق من خلال مياو، التى كانت تخفت وتعلو دون تجاوز المسافة بين الاستجداء والاسترحام، أما الرمادية فبدا مواؤها واثقاً، لا يخلو من اعتداد بالنفس، وإصرار، كمن يطالب بحقوق مشروعة واجبة التنفيذ، ربما كان ذلك بسبب صوتها الأجشّ بعض الشىء؛ أو بسبب هيأتها الشبيهة بهيأة النمور إلى حد كبير. الحقيقة أن مياو الصادرة عنها، بمختلف تلاوينها الصوتية العالية والمنخفضة، القصيرة والطويلة، كانت تقترب من الوقاحة.

مضى وقت، واقترب المساء، وإذ لا جديد، شعر الجميع بالملل، فزاد الشوَّاء من حركة تبديل قدميه، وخفّف من حركة يديه، أما ذاتا الأربع، فقد قررت البيضاء منهما افتراش الأرض الترابية بجسدها، وراحت تلعقه لعقات سريعة متوترة، واصلت بعدها المواء، بينما اكتفت الرمادية بابتلاع ريقها فى عصبية عدة مرات، ثم فتحت فمها واسعاً للتثاؤب حتى بانت لهاتها، وبعد ذلك علّت من وتيرة مياو المطلبية.

عندئذ، قرر صاحب الشواء حسم تردُّده؛ إذ كان قد فكر كثيراً قبل ذلك فى نهرهما وزجرهما قائلاً: بس، إمش، وها هو يعلن تنازله ورضوخه لمطلبهما؛ ربما بسبب ضيقه بكثرة المواء، وربما لأنه لم يجد شيئاً يفعله فى تلك اللحظة، أو لأنه يحب القطط ويعطف عليها؛ ومن المحتمل كذلك أن يكون وراء ذلك التنازل إيمانه العميق بضرورة الإحسان إلى الحيوان الأعجم الذى تحتسب الحسنة إليه بأكثر من عشرة أمثالها؛ لأنها حسنة مخفيّة لا يجازى عليها إلا ربُّ العالمين.

ألقى الرجل إليهما بقطعتين من زوائد اللحم تحوّل المواء على

إثرهما إلى: بخ، فخ، فو، أف... ثم طارت القطتان بغنيمتهما الثمينة مبتعدتين عن مكان الشوَّاء، الذى تنهد بارتياح، وراح يغنى بمرح: يا ليل، يا عين.

كان الدخان قد انتشر، ووصل إلى نهاية الشارع؛ حيث جلس كلب على الناصية يتشمم الهواء؛ باحثاً عن مصدر الرائحة اللذيذة، وسرعان ما حمل نفسه ومشى ليستقر واقفاً على بعد خطوات قليلة أمام محل الشوَّاء.

ثبَّت الكلب جسده فى وضع الصبر والانتظار، ونظراته على عينى الشوَّاء، الذى صار مشغولاً بزبائنه، وبتحضير الأرغفة المحشوّة باللحم وشرائح البصل والطماطم لهم، غير أن ذلك لم يحلْ بينه وبين التطلع والنظر بين الحين والحين إلى الطريق.

فى كل مرة، كانت عيناه تصطدمان بالعينين العسليتين الناظرتين بودٍّ وطيبة إلى عينيه، ومهما مرّ الوقت، ومهما عاود الرجل النظر، كان يجد النظرة ذاتها، والبثّ الودود نفسه، المعبّر عن امتنان ووفاء مسبق منقطع النظير. ضَعُفَ الشوَّاء أخيراً بينما كان يتلقى ثمن أرغفته من زبون، فمدّ يده البضّة السمينة، ذات الأصابع المكتنزة إلى قطعة مصارين صغيرة، وألقى بها إلى الحيوان الواقف أمامه ينتظر حبلاً للوداد.

هوّ.. واحدة، كانت كل التعبير عن الرضا والامتنان والشكر العميق من الكلب الذى حمل قطعة المصارين بفمه وانسحب بهدوء.

كحّ الشوَّاء وبلّ ريقه بشربة ماء، ثم تجشأ فى راحة.

توارت الشمس تماماً، وهَلّ المساء بنسمات طرية رطبة، وزبائن لا بأس بهم، تمنّى الشوَّاء الانتهاء من بيع ما تبقى لديه من لحم بسرعة

لينهى عمله، ويذهب إلى خمارة الليل السهران، ليشرب «خمسينة براندى»، يثوب بعدها إلى بيته ليقضى بقية ليله مع امرأته فى الفراش.

فجأة برز أمامه ولد وبنت صغيران بعيون متطلعة، وملابس رثَّة، وشعر خشن منكوش، أخذا يلعبان ويضحكان حيناً، ويتضاربان حيناً آخر، لكن أعينهما كانت دائماً عليه، على شوائه تحديداً، وعلى الزبائن الواقفين بالقرب منه يلتهمون اللحم فى نهم وتلذُّذ.

أحسّ الشوَّاء بضيق، وقال لروحه: ليَّلَ الليل، والناس رامية عيالها فى الشوارع، عالَم وسِخ والله.

لم يكفّ الطفلان عن الضحك واللعب والتضارب، بينما لم تكفّ عيونهما عن النظر إلى الشوَّاء، وبطناهما عن طلب اللحم اللذيذ المتقلب فى أسياخه الحديدية على حبات الفحم أمامهما، فراحا يدفعان بعضهما بعضاً فى محاولة مكشوفة للفت انتباه صاحب الشواء.

استشاط الشوَّاء غيظاً، وأكد لنفسه فكرته السابقة عن أطفال الشوارع وأهلهم، وقال لروحه وهو يضغط على أضراسه بغلّ: أولاد الحرام؟. ولما لاحظ اقترابهما منه أكثر صرخ بعنف قائلاً وقد ضاق بهما ولم يعد قادراً على الاحتمال:

- امشِ يا ولد، رُح لبعيد أنت وهى، بلا خوتة، وكفاية قلة أدب.

تسمّر الصغيران فى مكانهما برهة، وهما ينظران إليه فى يأس، ثم سرعان ما أخرجا له لسانيهما الرفيعين، وجريا بعيداً وهما يبتسمان فى حزن ومرارة.

درب التبّـــانة

بدا المكان مـرتـفعاً جداً عندمـا نظرت من الشيباك؛ إذ كانٍ حائش النخيل المواجه لا يظهـر منه إلا سعفه الأخضر الداكن المتراص. تزايد الرعب بداخلى، فـرحت أعـيـد البـحث عن منفـذ للخـروج، بعـد أن قطعت الأمل فى إمكانيـة القفـز خـارجاً عـبر واحـدة من تلك النوافـذ والطاقـات والكُوّات الكثـيـرة فى هذا البـيت الكئيب، الذى لا أعـرف كيـف ومتى دخلتـه، ولِمَ أنا فـيـه. كـان الظـلام قد بدأ يحل وأصـوات مـبـهـمـة مـتناثرة لأنـاس كثـيـرين تخـتـرق أذنيّ؛ قـررت الصيـراخ طالبـةً النجـدة، لكنى أفـقت من نـومى مـذعـورة على الزعـيق المعـهـود لجارى وهو يسب ويشـتم، فتحت عينى فى الظلام، بينما صدى الأصوات مـا يزال يتـردد بداخلى، تأففت ومددت يدى متحسيسـةً المكانِ بحثاً عن زرٍّ المصـبـاح، فلمـا سـمـعت «تيك»، ورأيت انبـلاج النور فى الغـرفـة، نظرت من مطرحى إلـى سـاعـة الحـائط المثبَّتـة فى الممر قرب البـاب وهـتفت لنفسى حانقة:

ـ اهـمـدوا يا عـالم. ربنا يهـدكم ونرتـاح من قـرفكم، خنـاقـات على آخر الليل، ازعـاج مستـمـر، لا مـراعـاة لحـرمـة جـار، ولا حسـاب لناس عندهم أشغال فى الصبح، حَوَش، هَمَج، برابرة.

تثاءبت بضيق، وكنت أعرف استحالة معاودة النوم، بعد ذلك الزعيق، والكابوس المفزع فقمتُ، دخلتُ المطبخ وفتحت الثلاجة متطلعة إلى ما بداخلها علّنى أعثر على شىء حلو آكله لأفشّ غيظى فيه، فلما لم أجد غير الفول والزيتون وبقايا متبقية من جبن العشاء، مددت يدى إلى زجاجة ماء، وبينما كنت أصب كأساً لأشربه اقتحمت أذنىّ أصوات: تراخ.. بو.. فو.. أف.. تفو، ثم الصوت المتحشرج المعهود لجارى: «والله لأكون قاتلك ولا يطلع عليكِ نهار يا بعيدة، ودينى، وما أعبد، لأسيّح دمك واستريح منك». وقفت متسمّرةً مندهشة فى مكانى أستمع لأصوات صحون تتكسر، وأثاث يُقلب. ما هذا؟. ساءلت نفسى، ثم أجبتها: الرجل جنّ جنونه فعلاً، وربما يتهوّر ويقتلها. أغلقت باب الثلاجة وأنفاسى تتلاحق من فرط الإثارة وتابعت هواجسى: مصيبة سوداء لو قتلها لن أبقى فى هذه الشقة ليلة أخرى بعد ذلك، أنا خوّافة جداً، فى عمرى كله ما شفت أى عفريت، لكن حكايات العفاريت التى سمعتها منذ صغرى مازالت محفوظة فى أرشيف ذاكرتى، سبحان من خلانى أعيش وحدى فى شقة. بدأ شريط صور حكايات العفاريت يعبر خيالى على خلفيّة من ألحان الرعب التى بدأت تنبثق فى داخلى. ثلاثية عفاريت جدتى أم أمى وهى: العفريت أبو رجل مسلوخة، العفريت أبو ثلاث عيون مشقوقة بالطول، العفريت أبو جلد معزى سوداء، ثم حكايات عفاريت جارتنا نينة حفيظة، وهى العفاريت الجهنمية القادرة على شقّ الحيط فى عز النهار والخروج لتأديب العيال الذين لا يسمعون الكلام. ثم حكاية عفريت بنت السلطان برقوق التى كان يحكيها لى عم إبراهيم العبد، خولى غيط عنب داير الناحية.

تعوَّذت من الشيطان الرجيم؛ إذ كان الخوف قد سلسلنى تماماً، وأوقع قلبى، خصوصاً بعد همود الأصوات، وانتهاء الزعيق. سرت على أطراف أصابعى متوجهةً إلى نافذة المطبخ المطلّة على المنور الفاصل بين شقتى وشقة الجيران وأنا لُرتعد، ورحت أصيخ السمع، وأتطلع إلى نافذتهم المقابلة لنافذتى، الصمت صميم يسمح بسماع صوت مشى النملة. يا ربى.. هل قتلها فعلاً؟. هل صفت كل الخناقات والمشاحنات التى طالما استمعت إليها بقتلها؟. رحت أتذكر آخر خناقة دارت فى الشقة المقابلة لشقتى، والتى كنت مستمعة عيان لها ساعة نشرى الغسيل يوم عطلتى وقت الغروب، وبعد أن فردت قميص نومى الأخضر الفستقى على الحبل، جاءنى صوته الخشن وهو يأمرها:

ـ فزّى. غورى من خلقتى بسرعة؛ لأنى عاوز أنام.

مثلما يحدث عادةً فى كل مرة تنفذ فيها أصوات المشاجرة إلى أذنى. لم أسمع منها رداً، سمعت فقط ـ وكما يحدث فى بعض الأحيان ـ صوت قطتهما وهى تموء بدلال، وهذه القطة هى الشىء الوحيد الذى تسنّى لى رؤيته فى شقة هؤلاء الجيران حتى الآن؛ إذ لاحظتها بضع مرات ممددة على إفريز نافذة مطبخهم، سمينة، مشمشية اللون من النوع الرومى، وكانت تبدو لا مبالية عادةً، حين أداعبها وأناديها: بس.. بس.. بس.. بس، إذ كانت تكتفى بإغماض عينيها نصف إغماضة؛ ثم تموء بصوت خفيض لا أسمعه من مكانى، لكنى أرى حركته على فمها.

تُرى، أى طراز من النساء امرأته تلك، حاولتُ تصوُّر شكلها، تخيلتها امرأة من الطراز التقليدى، سمينة بيضاء، من النوع المنزلى

الأليف. أنا سمينة أيضاً، لكنى لست من النوع المنزلى الأليف، طلقنى زوجى بعد مرور شهور قليلة على زواجنا، رمى اليمين الشهير ذات يوم رفضت فيه إعداد كوب من الشاي له؛ فاتهمنى بقلة الذوق والتربية، وفجر مخزون غضبه فى مونولوج طويل من السباب، بلغ ذروته عندما أعلن صراحة أنه يكرهنى، وأني عِرّة النساء ولا أساوى شيئاً في سوقِ الجريم؛ فلا مال لى، ولا جمال ولا حسب ولا نسب، وأنه كان أعمى عندما تزوجنى، ثم لعنَ أولاد الحرام الذين أشاروا عليه بالزواج منى، والمقصود بذلك ابن خالته وزوجته زميلتى فى المدرسة. وبمجرد أن انتهى من ذلك الموشح أسدل الستار على الفصل الأخير لزواجى بذلك الرجل، مدرس التربية المسرحية، ثم خرجت من البيت بعد أن ألقى يمين الطلاق فى وجهى، فقررت بدورى - وفى ساعتها - تطليق كل الرجال ومازال القرار مستمراً. لكن الواضح أن زوجة جارى لا تعمل إلا بالبيت، ربما لهذا السبب، وبسبب خروجى المبكر إلى عملى، لم تتح لى الفرصة لرؤيتها أبداً. لكنى رأيت الرجل مرة أو مرتين على الأكثر منذ بداية سكنى فى العمارة، بعد انتقال عملى إلى هذه المدينة. لقد بدا لى رجلاً مهذباً خجولاً، لم يتطلع إلى وجهى قط وأنا أبادله تحية الصباح على بسطة السلم. حتى صوته فى عِز الشجار، على رغم ارتفاعه، كانت تسرى فيه رنة حزينة، يبدو الرجل معها، وكأنه يتوسلّ، لا يسبّ ولا يشتم. رجل طيّب على ما يبدو، أظن أن المرأة زوجته طيّبة كذلك؛ لأن صوتها لا يُسمع أبداً، وحتى بكاءها لم أسمعه قط؛ ربما هى من النوع الكتوم الذى لا يرغب التجريس ويخشى الفضائح، لكن الغريب هو أمر الجيران الذين لا يحاولون التدخل وإصلاح الأمر بينهما،

على رغم كل ذلك الشجار والصوت العالى الواصل لكل العمارة.
غريب والله أمر الناس فى هذه المدينة الكبيرة، كأنهم حيوانات تعيش فى أقفاص إسمنتية ضخمة، كل بقفصه منفرد يتجاهل وجود الآخرين ويتصرف وكأن لا أحد فى هذه المدينة سواه. تنهدتُ بأسى بينما رحت أشخص ببصرى خارجاً فى الظلام، تجاه نافذة مطبخ جيرانى المقابلة، صائخةً السمع، محاولةً اكتشاف جديد جَدَّ عندهم.

لكنى لم أرَ شيئاً عبر زجاج النافذة المغبش، اللهم إلا ضوءاً يسيراً. لا حركة. لا نأمة. لا حس. لا خبر. ربما تصالحا. ربما اعتذر لها وقبل يديها، ثم أخذها فى أحضانه ليسحبها إلى الفراش؛ حيث يقضيان الآن وقتاً حميماً مسالماً. لكن ما هذا. يا ربى؟!. إنه يبكى. الرجل يبكى. صوت بكائه مسموع بوضوح الآن، هو يبكى بحرقة وينهنه كالعيال، عويله يائس مهزوم. إذن لقد قتلها، أجزم أنه لابد أن يكون قد فعلها. لا إله إلا الله، الرجل عملها، وهو منهار انهيار سد مأرب، يا للمسكينة، لم أسمعها ترد عليه بربع كلمة فى أية مرة من المرات، لم يُسمع لها صوت أبداً، لا حول ولا قوة إلا بالله. لكن كان عليها أن تستغيث أو تصرخ أو تجأر مستنجدةً، أو تزعق قائلة: حرام عليك.. حرام عليك يا.. اكتشفتُ خلال ذلك أننى لا أعرف للرجل اسماً. اعترتنى وحشة من اصطدام بالغموض، وسرعان ما تذكرت الكابوس الذى داهمنى منذ قليل لما كنتُ نائمة. لبرهة بدت المسألة لى وكأنها استمرار لذلك الحلم المفزع، حاولت التيقن. رفعت راحتى وتلمست ساعدى وتحسست ملمس جلدى المزغب اللزج فى هذه الليلة الصيفية الحارة.

رحت أمعن فى حياة جيرانى وتساءلت: لماذا يتشاجران على هذا

النحو دائماً، خناقاتهما مسائية وليلية على الأغلب، هل الرجل من النوع السهّير السكّير؟. هل يتعاطى المخدرات؟!. لكن مظهره عادى تماماً ولا يبدو عليه ذلك. لا زَوَغان فى نظراته، لا انتفاخ أو احمرار فى عينيه. تعبير وجهه هادئ وطبيعى. رحت أشحذ ذاكرتى لاستحضار ملامح ذلك الوجه. أظن أنه نحيل بأنف طويل بعض الشىء وعينين داكنتين على الأغلب. لم أتصور أن المشاكل مع امرأته وصلت إلى هذا الحدّ: حدّ العنف والقتل. فكّرت فى المرأة بدورها، ربما كانت من ذلك النوع المستفزّ الغيّاظ اللامبالى من النساء. لكن حتى لو كانت كذلك، فلينفصل عنها ويتركها بالمعروف، ليبحث عن بديلة لها تلائمه، أما القتل فشىء لا يمكن فهمه، وحتى الضرب مسألة لا يمكن استيعابها أبداً، لعل الرجل من النوع العصبى المتهور، لا يستطيع التحكم فى نفسه وقصر الشر، لكن زوجته مغفلة أيضاً؛ لأنها لا تسايسه. لا تفهم أن الحياة مع رجل أفضل من الوحدة. فلتسألنى أنا.

إن الحياة مع أى إنسان أفضل من الوحدة. بل حتى الحياة مع أتفه حيوان أفضل من الوحدة. أن يعيش وحيداً معناه أنه اختار سجنه الانفرادى بنفسه. فمثلاً لو كان معى أى مخلوق الآن لكنت كلمته وناقشته فيما يحدث الآن.. لكن...

اشرأببت بعنقى قليلاً؛ علّنى أرى شيئاً، لكن لا شىء يُرى سوى النافذة المقابلة المغلقة. الرجل فى شقته يبكى بمرارة. أشعر بدموعه ساخنة على خده تحرق قلبى، تتجمع دموع أحرّ منها فى عينىّ، يتناهى صوته إلىّ مرتفعاً، ممروراً للغاية: «أنا مجرم، وحش. عقلى راح وضعت يا ناس!. يا رب خلصنى من الدنيا.. أهئ..

أهئ.. أهئ..». مسكين الرجل، جن فعلاً، قلبى يتقطع بسببه. يجب أن أتماسك وأفعل شيئاً. سأكلّم البوليس، فمن المحتمل أن يفكر الرجل فى قتل نفسه، سأتصل بالبوليس ليأتى فوراً. لكن هل أنتِ واثقة يا بنت من قتله لها؟. افرضى أنه لم يجهز عليها، هل تتحملين مسئولية البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات؟. ألا تعرفين أن السلطات منزعجة فعلاً، ومتلمظة على أى مخلوق يحاول إزعاجها؟.

وقعت فى حيص بيص، وقلت لروحى: لكن على رغم ذلك لابد من عمل شىء، مستحيل السكوت. كانت مشاعر متناقضة تتملكنى تتراوح بين الفضول والشفقة والرغبة فى لعب دور ما بخصوص ما يحدث فى شقة الجيران، وهكذا وجدتنى أهرول إلى حجرة النوم لأفتح الدولاب، وأخرج ثوبى البنى الطويل ذا الأكمام المحتشمة، وهو الثوب المخصص لمقابلة الغرباء فى البيت. خلعت قميص النوم وارتديت الثوب على عجل، ثم كوّمت شعرى إلى الخلف بمشبك، وأخذت التمام فى المرآة، بعدها انطلقت إلى باب الشقة ففتحته واحتفظت بمفتاحه فى يدى، كنت مفعمةً بأمل: لعله لم يفعلها والمرأة على ما يرام. تمنيت ألا تكون الفأس قد وقعت فى الرأس لأصالحهما. قررت ذلك بينما كنت أعد خريطة بسيطة للكلام مع أولئك الجيران. سأدق الجرس بلطف، وعندما يفتح الرجل لى بعد تردد؛ إثر إخبارى له بمن أكون، أعرفه بنفسى قائلةً: فريدة بدوى، مدرسة بمدرسة إهل العلا الإعدادية للبنات. أصلى من الفيوم ومنقولة بعد الترقية كمدرسة أولى للجغرافيا إلى هنا. الحقيقة أنا ساكنة وحدى، ثم إنى تنبهت من نومى على صوتكم، وبصراحة الدنيا

ليل والطيب أحسن، ثم إن كل عقدة ولها حلال. المهم صفاء القلوب والنيّة السليمة. وأنا سمحت لروحى بالتدخل فى الموضوع؛ لأننا هنا فى الأحياء الجديدة المتطرفة عن وسط البلد، كلّ إنسان منّا وكأنه مقطوع من شجرة، يعنى من المفترض أن نكون كلّنا ستراً وغطاءً على بعضنا بعضاً، وسنداً وعوضاً عن الأهل والأحباب. ولما يَبُشّ الرجل فى وجهى ويدعونى للدخول أدخل بأدب، وأطيب خاطره وخاطر زوجته التى سيأمرها بعمل الشاى، وعندما نجلس ثلاثتنا لشرب الشاى، أهدئ وألطف الجو بينهما، بادئةً الحديث عن حالى وظروفى لأهيئهما للكلام عن حالهما، وحين أستشف أنهما ارتاحا لما قلت، وفتحا قلبيهما لى، مثلما فتحت لهما قلبى، آخذهما بالهداوة والعقل، وأمد لهما حبل المعروف والوداد؛ فنأخذ ونعطى فى الحديث، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، حتى تهدأ النفوس، ويطير دخان الصدور، ثم إنى لا أتركهما إلا بعد أن يكونا سمناً على عسل، والمشكلة بينهما صافية لبن، ونصبح بعد قليل جيراناً وأصحاباً، آخذ صوتهما ويأخذان صوتى وكذلك اللبن لى عندما يأتى اللبَّان ولا يجدنى؛ لأنى أكون فى المدرسة. كما أن صوتهما يصبح معى، بدلاً من الوحدة والوحشة والشعور بأن الإنسان مرمى رمية كلب أجرب منبوذ فى صحراء حفراء جفراء.

اجتزت الفَسحة الموصلة بين باب شقتى وشقتهما بثبات وحماس، بدا لى كل شىء ساكناً فى ذلك الوقت المتأخر من الليل. هممت برفع يدى لأتحسس موضع زر جرس الباب فى الظلمة، التى لم يغيبها كثيراً ضوء ضعيف نافذ من شراعة بابهما الزجاجية المثبتة خلف قضبان حديدية رفيعة، وقبل أن تمتد يدى للضغط على الزر، جاء

صوت الرجل عبر الباب المغلق، صوت سيّال بالحنان والرقة والرضا وهو يقول:

- خلاص.. حقك عليّ تعالى هنا، تعالى يا حلوة على حجرى، بس.. بس.. بس.. بس. لكن إياك ومدّ اليد على أى أكل محطوط فى المطبخ. أكلك فى طبقك وبس، فاهمة يا أنيسة، يا الله، تعالى عندى.. بس بس بس بس.

تلفّتُ فى الظلام حولى، داخلنى شعور وكأنى مازلت نائمة، سارعت الخطى إلى بيتى وساقاى لا تقويان على حملى؛ خوفاً من أن يرانى أحد وأنا على هذه الحال، فلما وصلت إلى باب شقتى لأدخل وأغلقه خلفى، كنت كمن عبر بحر الظلمات إلى بر الأمان.

وقفت لحظات أستند بظهرى إلى الباب المغلق، ألهثُ انفعالاً. كنت خائفة مضطربة مطمئنة راضية معاً، فالرجل غريب على أية حال ولو أنه لم يقتل، أظن أنه يؤاخى الجن، وإلا فلماذا كل هذا الضجيج والزعيق؟. أمن المعقول أنه كان يحادث القطة؟. أيحادث قطة مثلما يحادث أى إنسان عاقل؟. ضربت كَفاً بكفّ، وسرت إلى غرفة نومى، خلعت عنى ثوب الغرباء، وفكرى ما يزال مشغولاً بالرجل، لكنى أقنعت نفسى فى النهاية أن الأمر لايخلو من طرافة، ثم إن الحياة فى هذه المدينة المجنونة، الكئيبة، الموترة، تدفع الناس إلى حافة العُصاب، وتجعلهم يفعلون أى شىء أى شىء مهما كان غريباً وشاذاً يصعب تصديقه.

استعدتُ سكينتى قليلاً بعد توصلى إلى هذه النتيجة، فألقيت بنفسى على سريرى طلباً لاسترخاء تمنيته فى هذه اللحظات، وأخذت أتقلب عليه، فبدا لى واسعاً مريحاً، فردتُ ساقىّ وباعدت

بينهما متلذذة بنسمات آخر الليل الطرية الداخلة من النافذة المفتوحة على مصراعيها بجوارى. تنفست بعمق ونظرت متأملةً سماء رائقة ممتدة تعزف بوميض نجومها لحناً ذهبياً هادئاً. ظللت أحدق فيها بعينى باحثةً عن درب التبانة، حتى بدأ النعاس يداهمنى.

كنت أثناء ذلك أفكر فى جارى الغريب، بدا لى مسكيناً بائساً. حاولت تذكرملامحه وتحديدها، اكتشفت أنها عاديّة تماماً، لكنها مقبولة ولطيفة إلى حد ما. تقلبت فى فراشى بجسد أخذ فى الاستكانة والاسترخاء مستسلماً لنعاسٍ لذيذ، ولرغبةٍ ما، كان قد نسيها منذ زمن بعيد.

الفهرس

أرانب ٧
الجمـــل ٨١
حيوانـــــات ٨٩
درب التبّــانة ٩٣

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) ١٩٨٦ ، القاهرة.
- مقام عطية (رواية وثلاث قصص قصيرة) ١٩٨٦ ، دار الفكر القاهرة.
- عن الروح التي سُرقت تدريجياً (قصص قصيرة) ط١ ، ١٩٨٩ ، مصرية للنشر، القاهرة - ط٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) ط١ ، ١٩٩١، سينا للنشر، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٠ ، دار سحر للنشر، تونس.
- عجين الفلاحة (قصص قصيرة) ١٩٩٢، سينا للنشر، القاهرة.
- وصف البلبل (رواية) ١٩٩٣، سينا للنشر، القاهرة.
- أرانب (رواية قصيرة وقصص) ط١، ١٩٩٤، سينا للنشر، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- إيقاعات متعاكسة (قصص قصيرة) ط١، ١٩٩٦ ، دار النديم، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ليل ونهار (رواية) ١٩٩٧ ، دار الهلال، القاهرة.
- نونا الشعنونة (قصص قصيرة) ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البشموري (رواية) «الجزء الأول» ط١، ١٩٩٨ ، دار الهلال، القاهرة.
- البشموري (رواية) «الجزء الثانى» ط١ ، ٢٠٠٠، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- البشموري (الجزأين معا) ٢٠٠٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- حلم السنين (مسرحية) ٢٠٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شعور الأسلاف (قصص قصيرة)، ٢٠٠٣، مكتبة مدبولى، القاهرة.
- سواقى الوقت (رواية)، ٢٠٠٣، دار الهلال، القاهرة.